

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١



مكتبة الأسرة

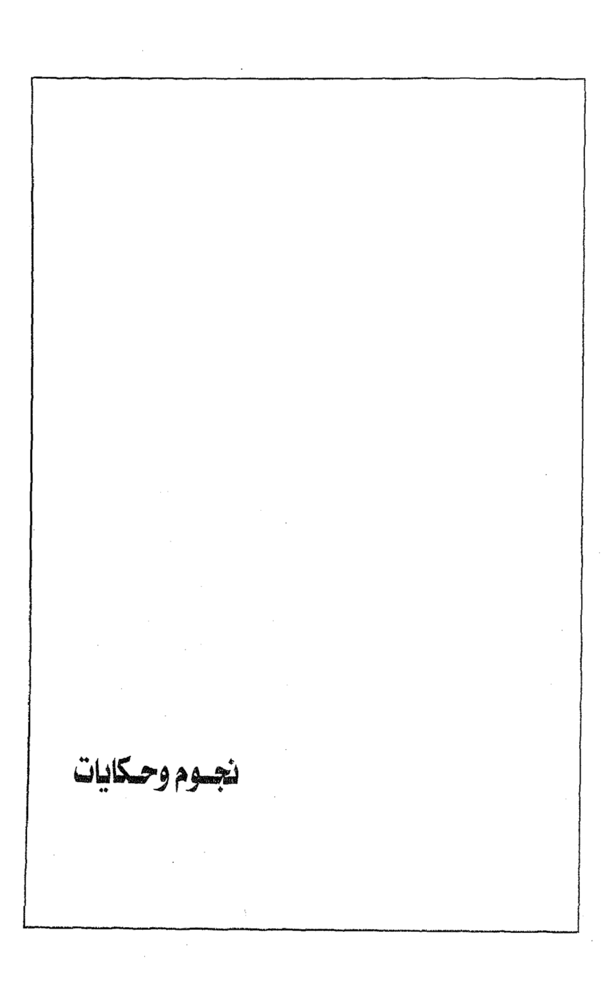
عبد القادر حميدة

نجوم وحكايات

الأعمال الخاصة



الهيئة المصرية
العامة للكتاب



نجـوم وحـكايات

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى : **نجوم**

التقنية : **صور فوتوغرافية وكولاج**

المقاس: ١٨×٢٤ سم

تجمع لوحة الغلاف بين شخصيات عدة: الفنان يوسف بك وهبى، والمخرج زكى طليمات، والروائى العالمى نجيب محفوظ، والفنان التشكيلى صلاح طاهر، وشاعر الشباب أحمد رامى، والكاتبة أمينة السعيد، والفنانة رتيبة الحفنى، والشاعر نزار قبانى، والمخرج السينمائى صلاح أبو سيف، والكاتب الناقد عبدالرحمن شكرى، والمطربة فيروز، والملاكم العالمى محمد على كلاى. وقد مزجت اللوحات فى إطار لوحة واحدة خلفيتها صورة كبيرة للمطربة فيروز، والصور تتراوح بين اللون الواحد، أبيض وأسود، أو بنى، أو أزرق، أو أربعة ألوان، والتكوين بسيط جداً، يقترب من العفوية الساذجة، ورغم بساطته فقد ترك العنان لشتى الوجوه لتعرب عن نفسها.

محمود الهندى

نجوم وحكايات

عبدالقادر حميدة



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الخاصة)

نجـوم وحكايات

عبدالقادر حميدة

الغـلاف

والإشراف الفنى:

الفنـان : محمود الهندى

المشرف العام :

د . سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقـافـة

وزارة الإعـلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشـباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

محتوى الكتاب


زكى طليمات

● فى ذروة العطاء المسرحى لفرقة جورج أبيض .. ألقى الشاب زكى طليمات – ٢٦ سنة – نفسه فى أتون المغامرة المسرحية !

الشباب ، والجذوة ، والحماس المبكر .. كل ذلك جعله أول الامر يستخف بتلك النظرة الضيقة الموجهة من عين المجتمع ، الى المسرح والممثل . كان التمثيل فى ذلك الوقت مخاطرة صعبة لمن يخاطرها ، حين وجد لمواهبه مكانا فى فرقة جورج ابيض . كان ذلك عام ١٩٢٠ ، ولمدة عامين استطاع الشاب زكى طليمات أن يؤكد وجوده الى جوار جورج ابيض ، وعبد الرحمن رشدى لكنه – بحساسيته الشديدة ، وعناده الاشد – ضاق ذرعا بالمناخ غير الصحى الذى يسود علاقات العمل فى المسرح . خاصة وان امتصاص هذه المتاعب ، لم يكن يؤدى الى مغنم ، ولايصنع الجاه لصاحبه فى ذلك الوقت ! عندئذ ، قرر الشاب زكى طليمات أن يعتزل التمثيل ضنا بوقت يضيع ، وشباب يذهب هباء !

وهكذا بين يوم وليلة .. إنتقل من خشبة المسرح « ممثلا » ، الى حديقة الحيوان « موظفا » !!

« ص : ١٧ »


يوسف وهبى

● فيلا يوسف وهبى – وهى من الطراز الأوربى – غارقة فى احضان غابة كثيفة ، سامقة الاشجار ، متعانقة الفروع . الأشجار فى مساحة الظلال والسكون ، أشبه بشخصيات خرافية فى مسرح الطبيعة . تتحاور حينا بالصمت . وحينا بالحفيف ، كلما هبت النسمات . والهواء فى غابة الفيلا محمل بالمزيج المركز من عبق الورد ، والكريزانتيم ، والكاميليا . وتحت شعاع الأضواء المتخفية المتسللة ، تتهادى زهور الزينة وتتمايل ، كأنها راقصات باليه فى مسرح الأشجار ، والعطر ، والقمر !

كان يوسف وهبى ينتظر مقدمى فى حديقة الفيلا .. أقصد الغابة . كان يرتدى حلة صيفية بنية اللون القميص الأبيض مقفول عند الرقبة . وبلا رباط عنق.وعلى عينيه منظار يحمل الدرجات الأولى من اللون البنى .. وأمامه ، على منضدة متوسطة الحجم ، تليفزيون صغير . وعن يساره منضدة صغيرة عليها تليفون . أطفأ التليفزيون حين كنت أقترب منه قادما. مد لى يده وهو جالس :

–أعتذر من عدم النهوض لمصافحتك . إن ساقى لاتستجيبان لحركة النهوض التلقائية ، كلما أردت ذلك . لقد أخطأ الأطباء فى بيروت علاجى مما أثر على الدورة الدموية وذلك أثر بدوره على حركة الساقين !!

« ص : ٢٩ »



● فى كتابه « تاريخ السينما » الذى يتناول فيه الناقد والمؤرخ الفرنسى جورج سادول ، تاريخ السينما فى العالم منذ أن بدىء فى اختراعها عام ١٨٣٢ . . أشار الى صلاح أبو سيف كواحد من أحسن مخرجى السينما المعاصرين !

لقد كتب سادول من بين ما كتب عنه :

« صلاح ابو سيف واحد من أحسن مخرجى السينما المعاصرين تتميز أفلامه بقوة إحساسه بالحياة الشعبية ، وبالواقع الإنسانى » .

صلاح ابو سيف

وعندما أثبت الناقد والمؤرخ الفرنسى هذا الرأى فى أخطر وأهم مجلد عن السينما فى العالم ، لم يكن صلاح ابو سيف قد امضى فى ميدان الإخراج السينمائى غير تسع سنوات — وكان حصاده من الافلام التى اخرجها لشاشة السينما عشرة أفلام فقط ! ومع ذلك ، تنبه اليه أكبر ناقد ومؤرخ سينمائى فى العالم . إعتبره واحدا من اهم مائة سينمائى من بينهم شارلى شابلن ، وسيسل دى ميل ، وإيزنشتاين ، وهتشكوك ، وأورسون ويلز ، ودى سيكا ، وبورفكين ، ومخترع السينما نفسها : لويس لامبير !

« ص : ٣٧ »



● يستعذب أحمد رامى أن يستعيد أحاسيس لقائه الأول بأم كلثوم :

« إذا كان الصوت السابح فى الأثير يستحيل إلى مخمل . والموسيقى الى اذرع منظورة تحمل هذا المخمل . . فقد وجدتنى فى عالم آخر ، مكانه فى المطلق . صوتها جعلنى فى مساحة الكون قطبا يدور فى مجال لا أعرف مداه . وأحسست لقصيدتى مذاقا جديدا . . مذاق السحر » !

ومن ذلك التاريخ ٢٤ يوليو ١٩٢٤ ، أصبح رامى وجها ثابتا فى كل حفلات أم كلثوم !

أحمد رامى

ولم تكن أم كلثوم قد استقرت فى القاهرة بعد . كانت تأتى من قريتها « طماى الزهايرة » لتغنى فى القاهرة ، ثم تعود الى قريتها . ومن قريتها الى حفلات أخرى فى مدن أخرى . وفى كل هذه الحفلات ، إعتادت أم كلثوم أن تتوقع وجود رامى فى مقدمة الجمهور . تحول رامى الشاعر ، إلى عاشق لصوت أم كلثوم . ومن وحى هذا العشق ، كتب أولى قصائده فيها :

صوتك هاج الشجو فى مسمعى
وأرسل المكنون من أدمعى
فيه صبابتى . . وفيه الضنى
يشكو تباريح فؤادى معى
كأنما لفظك فى شدوه
منحدر من دمعى الطيع !

« ص : ٤٩ »



أمينة السعيد

● عندما تخرجت أمينة السعيد من الجامعة فى عام ١٩٣٥ ، أوشك تيار التمثيل أن يجرفها الى عالمه . لاتعبيرا عن حبها للمسرح فحسب . وإنما لسبب آخر يتصل بموقفها الوطنى المبكر . ففى ذلك الوقت ، كانت اللغة العربية – إزاء الفرنسية والإنجليزية – لغة من الدرجة الثالثة . إذ كانت مصر وقتها هدفا للصراع الأنجلو – فرنسى . وكان التنافس بينهما ، لنشر نفوذهما الفكرى فى الشرق العربى ، طريقه الترويج للغة كل منهما ! وهكذا خفت صوت اللغة العربية أمام ضجيج الصراع أو تهدد ! وهكذا أيضا – وفى خضم القضايا التى شغلت هدى شعراوى زعيمة الحركة النسائية فى مصر وقتذاك – لمحت هدى شعراوى ذلك الخطر المحدق بلغة البلاد . وعلى الفور ، راحت تعمل من أجل ابتكار وسائل لحماية « اللغة » وتعميقها . إحدى هذه الوسائل ، كانت مسرحا خاصا ، أقامته هدى شعراوى ، لكى تقدم عليه المسرحيات باللغة العربية الفصحى ، وكان من بين الممثلين على ذلك المسرح ، الفتاة أمينة السعيد المتخرجة حديثا من الجامعة . إذ كانت – فضلا عن نشأتها فى بيت وطنى – ممن تأثرن بالأفكار التى تنادى بها هدى شعراوى .

كانت استجابة أمينة السعيد للتمثيل ، بمثابة موقف وطنى تعبر به عن حبها لمصر !

« ص : ٥٩ »



رتيبة الحفنى

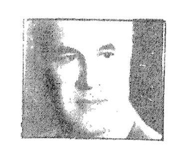
● وهى طالبة بمعهد التربية الموسيقية ، كانت رتيبة الحفنى قد وصلت فى العزف على « البيانو » الى مستوى عال ، أهلها لأن تقود فرقة المعهد . وتوغلت فى الدراسة ، فالتحقت بقسم الغناء أيضا . أدت إمتحانا فى أغانى « الأوبرا » و « الكلاسيكيات » واجتازت الامتحان . فلما تخرجت فى عام ١٩٤٧ ، كان ترتيبها « الأول » على دفعتها وكانت درجات التخرج مائة فى المائة . وقد رشحها ذلك الى بعثة دراسية فى الخارج . لكن صغر سنها حينذاك ، حال دون تنفيذ البعثة . وهكذا التحقت رتيبة الحفنى بقسم الدراسات العليا بالمعهد .

التحقت مباشرة بالسنة الثالثة . وكان الشرط الوحيد امامها ، هو أن تحصل على شهادة التوجيهية – الثانوية العامة الآن – لكى تحصل على البكالوريوس . ولعلّ ذلك هو الاستثناء الوحيد فى تاريخ وزارات المعارف العمومية ، والتربية والتعليم ، المصرية . لكن رتيبة الحفنى ، كانت عند حسن ظن هذا الاستثناء . إذ حصلت فى السنوات الثلاث التالية على شهادتى « التوجيهية » و« البكالوريوس » . وفى نفس الوقت أجادت العزف على آلة العود !

و .. عينت معيدة بنفس المعهد .

ومع ذلك لم تنته دراساتها عند هذا الحد !!

« ص : ٧٣



● عندما التقيت بـه فى مرسمـه ـ فيللا صغيرة من الأخشـاب فوق سـطوح إحدى العمارات الشاهقة فى الزمالك - أحسست أننى التقيت به كثيرا من قبل . وأننى أعرف صاحب هذا الوجه الابيض المشرب بأولى درجات اللون الأحمر . وذلك الشعر الفضى المتموج ، ممشطا الى الخلف بلا عناية ، لكنه يكمل وسامة الهموم التى تنز بها عيناه ، وكأنه يحمل هموم البشر ، فى نبع صامت من الدموع !

صلاح طاهر

شاهدته وسط لوحاته العديدة فى مرسمه ، قلقا ، مترقبا ، مشغولا ، حتى لتشعر انه - وهو يتحدث اليك - على موعد دائم مع ذاته ، وعالمه ، والوانه ، ومشاريع الدموع فى عينيه ، كأنه يحمل هموم البشر ! ولأنها دموع كالغيم فإنها هى التى تمطر ظلالها الرمادية - أو هكذا تبدو لى - على بشرة الألوان المتآخية فى لوحاته . فإذا طالعت إحدى لوحات صلاح طاهر ، فإنك سوف تلمس هذه التكوينات ذات الخطوط المنحنية ، وكأنها طرق تشق مجراها امام ينابيع المشاعر الملونة القادمة من عالم الفنان ، ومن مخابيرة الداخلية !

هو لايتذكر - والاصح انه لايريد ان يتذكر - لماذا نبع بداخله كل هذا الألم العظيم !! وتزدحم الدموع فى عينيه اكثر !!

« ص : ٨٣ »



● حكايات « كابتن لطيف » أشبه بكرة ذكية فى الملعب .. سريعة الايقاع . تتجاوز التفاصيل ، لتقترب أكثر من الأهداف

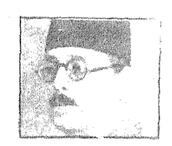
فى أواخر عام ١٩٣٢ سافر الى انجلترا . إلتحق بكلية جوردون هل Gordon Hill ليتخصص فى التربية البدنية ، دارسا لمدة خمس سنوات وهناك ، وجد تزكيتين هامتين بشأنه ، وصلتا من القاهرة . إحداهما من الاسكتلندى « سامبسون » مراقب التربية الرياضية فى مصر . والأخرى من « جيمس ماكراى » مدرب فريق مصر الأهلى . والتزكيتان موجهتان الى « نادى الرانجرز » أكبر أندية اسكتلندا لكرة القدم فى ذلك الوقت . وفى التزكيتين توصية بضم اللاعب المصرى محمد لطيف الى فريق النادى .

محمد لطيف

ولمدة خمس سنوات ، ظل محمد لطيف عضوا لاعبا فى أكبر اندية اسكتلندا ، وطالبا متفوقا فى نفس الوقت بكلية جوردون هل !

فى أغسطس ١٩٣٧ ، حصل محمد لطيف على بكالوريوس التربية البدنية والصحة . وعاد الى القاهرة ليكمل رحلته - لاعبا - لنادى الزمالك . وفى عام ١٩٤٥ إعتزل الكرة واتجه الى التحكيم . وفى عام ١٩٥٦ إعتزل التحكيم أيضا . وفى عام ١٩٤٨ كانت الإذاعة قد كلفته ، بإذاعة تمرينات الصبح مع محمود بدر الدين . فلما أنشئ التليفزيون ، أصبح محمد لطيف نجم التعليق التليفزيونى على المباريات .

« ص : ٩٣ »



●قبل أن يصدر الجزء الأول من دواوينه عام ١٩٠٩ ، كان عبد الرحمن شكرى صديقا حميا للمازنى . فلما صدر الديوان ، رغب « العقاد » فى أن يتعرف عليه ، وكان « المازنى » همزة الوصل بينهما . وبذا ، أصبح الثلاثة باقة جميلة متآلفة للصداقة والأخوة . كان شكرى الأغزر علما وثقافة ، فأتيح للمازنى والعقاد أن يفيدا من ثقافته وعلمه . وقد أعربا عن ذلك فى عدد من المقالات .

ثم ، فجأة تتحول الصداقة الى جفوة . والحب الى كراهية والحفاوة بشعره وشاعريته ، الى قدح وذم وهجاء !!

عبد الرحمن شكري

ففى عام ١٩٢١ ، إشترك العقاد والمازنى فى تأليف كتاب « الديوان » وغايته تحطيم الشاعرين « أحمد شوقى » و« عبد الرحمن شكرى» فأخذ العقاد على عاتقه تحطيم شوقى . وتكفل المازنى بتحطيم شكرى !

وهكذا ، وجد عبد الرحمن شكرى نفسه مضطرا الى أن يرد على الإهانة بالمثل . فذكر فى خاتمة الجزء الخامس من ديوانه « الخطرات » عددا من قصائد المازنى ومقالاته المسروقة من شعراء وأدباء أوروبيين حدد أسماءهم فلفت بذلك أنظار القراء ، الذين أخذوا بدورهم ينبشون عن سرقات أخرى ، واجهوا بها المازنى ، حتى اضطر فى النهاية الى الاعتراف قائلا : « إننى أقرأ .. ثم أنسى ما أقرأ . وأكتب فلا أحس أننى أسرق !! »

« ص : ١٠٥ »



●فى تلك الندوة التى جمعتنا – هو ، والشاعر فتحى سعيد ، وأنا – بأدباء ، وشعراء ، وكتاب القصة فى محافظة البحيرة – وهى المحافظة التى ولد فى قراها ثلاثتنا ، ونشأنا ، وتعلمنا فى مدارسها – تحول محمد عبد الحليم عبد الله ، الذى ابتلع وجبته من الأدوية قبل أن نغادر الفندق ، إلى شعلة من الوهج والحضور . ينصت الى قصص وقصائد الشبان ، وكأنه يحفظها . ويدون ملاحظاته على ما يسمع ، كأنه مسئول – والى الأبد – عن مستقبل هؤلاء الشبان !

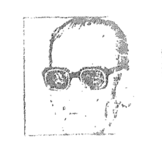
محمد عبد الحليم عبد الله

فى تلك الليلة ، التى يحزننى انها لن تتكرر فى صحبته ، كان قد استجمع كل الخيوط بين أصابع عقله ، وعواطفه . وراح يتحدث الى الشباب ، بمثل ما يتحدث فلاح مصرى الى ارض خصبة ، يناجيها ، بسيطا ، وموضوعيا ، ومحبا ، ومليئا بالتفاؤل ، والثقة .

فلما انتهت الندوة فى حوالى الثانية صباحا .. حلمت ، وحلم الشعراء والقاصون ، أن يكمل السهرة معنا حتى الصباح . لكن وجبة الأدوية التى حان موعدها فى الفندق ، سوف تحرمه – كما قال معتذرا – من الاستمتاع ببقية هذه الامسية .

ولم يكن فى حساب الذين عشقوه ، أنهم حرموا من بقايا آخر لقاء معه .. إلى الأبد !!

« ص : ١١٣ »



نجيب محفوظ

● أتذكر الآن لقائى الأول بنجيب محفوظ .

كان ذلك فى عام ١٩٥٧ .

كنت فى بداية التحاقى بالعمل الصحفى ، فى مجالات الأدب . وكان نجيب محفوظ فى عامه السادس والاربعين ، يقيم ندوته الأسبوعية . فى كازينوه أوبرا » . كنا نتحلق حوله ، طلاب أدب ومعرفة ، فى حضرة الأستاذ الذى خرج على جماهير القراء ، والكتاب معا فى ذلك الحين ، بثلاثيته الرائعة . ولابد أننا نحن المتحلقين حوله من الشباب - وكنا فى نشوة الانبهار بقراءة الثلاثية - فى ظمأ الى استيعاب هذا العمل الكبير ، الذى احدث دويا هائلا فى الساحة الأدبية العربية ، دون أن يتجاسر ناقد على الاقتراب منه ، وتحليله ، والإضاءة على خبايا معماره الفنى المركب . ولابد أننا . كنا نتوقع من نجيب محفوظ أن يحدثنا عن هذا العمل الفذ . . كيف قام به ؟ وعن تجاربه مع الكتابة . . وعن حياته ايضا !

لكن نجيب محفوظ ، كان يؤثر الصمت ! والأعجب ، أنه كان يسعده أن ينصت إلينا نحن . ولايمل من ذلك ! كان يوقد فى صدورنا جذوة الحديث عن خواطرنا ، وقراءاتنا ، وأحلامنا ،ومحاولاتنا الأولى فى الكتابة . فإذا تكلم ، فإنما ليسمعنا عبارات التشجيع ، ولكى يزرع الثقة فى نفوسنا تجاه المستقبل !

« ص : ١١٩ »



نزار قبانى

● قصة نزار قبانى مع الشعر ، تبدأ لديه ، منذ اللحظة الأولى لميلاده فى عام ١٩٢٣ . إذ كان الربيع لحظتها يستعد لفتح حقائبه الخضراء . وكانت الطبيعة قد أعلنت ثورتها على الشتاء ، بينما راحت تبث فى روح الحقول والأزهار والعصافير ، تأييد تلك الثورة على روتين الأرض ! كذلك تبدأ قصة نزار مع الشعر من محطات الطفولة فى بيت العائلة فى حى « الشاغور » فى دمشق ، حيث طالعت طفولته حركة المقاومة ضد الانتداب الفرنسى ، وهى تمتد من الريف السورى حتى مدنه . وفى ساحة ذلك البيت ، أبصرت طفولته وجوه الزعماء السوريين ، وهم يخطبون فى الوف الناس ، مطالبين بمقاومة الاحتلال ومحرضين الشعب لكى يثور من أجل الحرية ! وعند الباب الخارجى لنفس البيت ، ودعت طفولته ذات ليلة أباه ، بينما الجنود يقتادونه مقبوضا عليه الى معتقل « تدمر » فى الصحراء ! إذ كان ابوه ممن يمولون حركة المقاومة الوطنية .

كان مفروضا إذن - وتلك هى البيئة التى نشأ فيها نزار - أن يكون شاعرا مقاتلا بالكلمات فى ساحات النضال العربى ، وليس شاعرا مقتولا بلحظ امرأة فى مخادع العشق !!

فلماذا اختار نزار « المرأة » بديلا للثورة ؟ !

ولماذا احتلت كل تلك المساحات الشاسعة من أوراقه ، وايامه ، وشعره ؟ !! وهل صحيح أن « نزار »دخل مخدع المرأة ، ولم يخرج منه ، كما قال عنه « العقاد » فى إحدى مقالاته ؟

« ص : ١٢٣ »



فيروز

● فى الطريق إليها ، وحبات المطر ، كأنها ملايين المناقير الصغيرة الخضراء ، تنقر زجاج السيارة . . رأيت « فيروز » من وراء العصافير قادمة من ملبرج القمر . رداؤها الأبيض . مرصع بحبات النجوم . ومن حولها صوتها : لأجلك يا مدينة الصلاة ، أصلى ! كأن شفاه ملايين اللاجئين من ورائها تردد : يا قدس يا مدينة الصلاة ! . . ذبحة أسى كالسكين فى صدرى ، ينبثق منها أم لاجئة ، تمطر أحزانها على أديم الأسفلت المغسول فى أمسيات شارع الحمراء . طفلها يستوطن صدرها وعلى لسانها سؤال فى وجه العابرين المسرعين ، كالأمل المنطفىء . لايولد أبدا !! ويتعانق الوجهان فى رأسى : وجه الطفل اللاجىء . ووجه فيروز. وينهمر الحزن فى عينيها ، صوتا من اعماق الجرح : لاجل من تشردوا . لأجل أطفال بلا منازل .

ويلد الصدى ، ملايين الأصداء : البيت لنا . والقدس لنا . وبأيدينا سنعيد بناء القدس بأيدينا . للقدس سلام .

ويغمرنى الحزن الجماعى فى صوت فيروز :

حين هوت مدينة القدس
تراجع الحب ..
وفى قلوب الدنيا ..
استوطنت الحرب !!

« ص : ١٤٣ »



محمد على كلاى

● لأن الحب أقوى من الكراهية . فإن محمد على كلاى ، لايكره احداً فى هذا الوجود . لكنه يرفض – بقوة – أولئك الذين يضطهدونه ويضطهدون الآخرين ! .

ولأن التواضع أقوى من الاستعلاء .. فإن كلاى إنسان بسيط إلى ابعد حدود البساطة . لكنه اقوى ما يكون اعتداداً بنفسه ، إلى حد يشبه الغرور ، أمام خصمه ! إن هذا الاعتداد المكثف ، ليس إلا نوعا من الحضور الطاغى ، يستمد به المزيد من قوته وفاعليته . ثم هو بعد ذلك موجه الى خصمه ، محدثا بداخله نوعا من الإرباك ، والتوتر ، والقلق !

ولعل أقوى ما فى « كلاى » هو إيمانه المطلق ، قبل كل مباراة ، بأنه لابد منتصر . وبأن الهزيمة لابد أن تكون من نصيب الخصم !

إن هذا الإيمان ، يفرغ طاقته من أدق ذرات الشك والتردد . ويحشد قواه فى كل ثانية من ثوانى المباراة بالثقة ، الواثقة من أن الانتصار كامن فى قبضته !

وهو بعد ذلك ، يعتبر نفسه « ملكية عامة » لكل الناس . ومن هنا ، تتفجر بداخله روح تهزأ من كل النوايا المضمرة له بالشرور وتخضرُّ قواه أكثر !!

« ص : ١٥١ »

الإهداء

إلى أجيال الشباب الموهوبين
في كل مجالات الإبداع ..

« عبد القادر حميدة »

تقـــديم

● ينتهى القارىء من مطالعة الصحيفة - يومية أو أسبوعية - فإذا له فيها ، مآرب أخرى !

فهى « غطاء » لمائدة الطعام فى كل وجبة تحمى « مفرشها » من التلوث ، وتحمل النفايات الى صندوق الزبالة !

وهى « الملاذ » فى طابور منافذ بيع الخبز ، يرص عليها الأرغفة ، خارجة لتوها من لهيب الفرن !

وهى « حافظة » لأوراقه ، ذاهبا إلى المكتب ، وعائدا منه !

وهى مايكدسها التاجر ، لكى تتحول الى « قراطيس » اللب والسودانى ، و« أكياس » الطرشى والطعمية !

ومن المسلمات ، أن « الصحيفة » تلفظ أنفاسها الأخيرة ، بين يدى القارىء ، قبل أن تفضى بكل أسرارها إليه !

فلكل موضوع قارىء ..

ولكل قارىء مزاج ..

وليس هناك ، فى كل الأحوال ، قارىء ، يطالع صحيفة من الغلاف إلى الغلاف !

تلك هى حقائق « العادة » اليومية ، بين الجماهير العريضة من القراء وبين الصحيفة .. يدركها جيداً أولئك المشتغلون بمهنة الصحافة ، وفى مقدمتهم فصائل الكتاب ، الذين يدركون معها ضمنا ، أن كتاباتهم التى لاتفقد جدتها بمرور الوقت ، والتى تتخذ من الدوريات الصحفية جسرا الى القارىء ، تتعرض للاندثار اليومى ، تبعا لتلك « العادة »

ومن هنا ، فإن كتاب الصحف الدائمين والمنتظمين ، يحرصون بين الحين والحين ، على أن يجمعوا ماكتبوه ونشروه فى تلك الدوريات ، لكى يخرجوا به ، من جديد ، على القراء ، بين دفتى كتاب ، حفاظا على ماكتبوه من الإهمال والضياع . وإبقاء على الفائدة مما كتبوا . وإثراء للذاكرة العامة ، بما أحيطت به من قبل ! ذلك لأن الكتاب ، هو الكائن المطبوعى الحى المقاوم لكل عوامل الفناء . فهو الجدير فى كل وقت بحاجة القارىء إليه . وهو من يستنفر غريزة الامتلاك له ، وحرص الحفاظ عليه . وهو المسكون دواما ، بهاجس الرغبة فى التداول ، من يد إلى يد . ومن مكتبة فى الطريق العام ، الى مكتبة فى

البيت . ومنها الى العقول والأذهان ، صديقا ، ومؤنسا ، ومفضيا بما لديه من عوالم المعرفة !

وهكذا .. حين كتبت هذه الصفحات قبل ثلاثين عاما مضت ، كان فى ضميرى أن أوقظها ذات يوم قادم ، من مرقدها على وسائد الصحف التى نشرت بها حينذاك ، لكى يشغلنى أمر نشرها من جديد هذه المرة فى الكتاب .

إنها صفحات مفعمة بالوقفات المتأنية ، والزمن الثرى ، عشتهما مع أشخاص ، لعبوا أدوارا هامة فى حياتنا الأدبية والفنية . ولست أستثنى من الفن « حضور » المعلق الرياضى المعروف محمد لطيف ، ومهارة اللاعب المسلم المتقاعد - الآن - محمد على كلاى ، فى حلبة الملاكمة !

أربعة عشر نجما .. قراتهم ، وشاهدتهم فى أعمالهم ، واقتربت من عوالمهم الفنية والنفسية ، صديقا للبعض منهم ، وزميلا للبعض الآخر . ومن هنا ، يأتى حديثى عنهم ، وحوارى معهم ، تعبيرا عن تقدير ومحبة . وهى مشاعر ، يشاركنى إياها ، الملايين من جماهيرهم الكبيرة .

فإذا ما قصدت التدليل على أهمية إحياء هذه الصفحات .. فذلك ، لأن وراء كل نجم من هولاء النجوم الكبار ، قصة كفاح شريف ونبيل ، تحتذى . وقصة نجاح ، حرى بالشبان أن يتمثلها ، وأن يستشرف آفاقها وخطاها . وأن ينطلق منها . وهى حكايات ، أحملها إليهم بحناجر أصحابها ، وقد حفروا فى الصخر ، لكى ينبتوا لنا أشهى الثمار . ومازالوا يأخذون بأيدينا الى حدائق الأحلام الجميلة .. للحياة !

يبقى أن اقدم هذا الكتاب . الى أجيال الشباب الموهوبين فى كل مجالات الابدع ، لكى يتعرفوا على أنفسهم فى مرايا هؤلاء النجوم ، الذين باحوا ببعض أسرارهم لنا . صدقا مع أنفسهم . وإخلاصا للفن . واحتراما للإنسان .

« عبد القادر حميدة »


زكى طليمات
يوسف وهبى
نجيب محفوظ
صلاح طاهر
أحمد رامى
أمينة السعيد
زينبة الحفنى
نزار قبانى
صلاح أبو سيف
عبد الرحمن شكرى
فيروز
محمد عبد الحليم عبد الله
محمد لطيف
محمد على كلاى

زكى طليمات

أعجب لهذه الذاكرة . . ذاكرة زكي طليمات !

ذاكرة غواصة وراء الأرقام ، تلتقطها من كهوف الذكريات . فكل الأشياء لديه ، لها تاريخ .

الإنسان ، حيوان ذو تاريخ . والفن ، ظاهرة ذات تاريخ .

ومن التاريخ ينطلق دائما ، ليضع أحلامه فى اللحظة التاريخية المناسبة .

وعلى طول الطريق . . وإلى هذه اللحظة من عامه السابع والسبعين . . تتوهج أرقام الأيام فى ذاكرته ، وكأنما هى أوراق مفكرة خرافية مثبتة على حائط زمنه ، وفى مستوى النظر من عينيه . يطالعها . . فإذا كل الأبواب تفتح له على عالم اللحظة التى يسترجعها . إنها اللحظة التى وقف يوما بداخلها ، ليثب إلى غيرها . وهى دائما ، لحظة من أجل المسرح . فلقد وضع عينيه على المسرح ذات تاريخ قديم فى مطلع هذا القرن . ولاتزال عيناه على المسرح حتى هذه اللحظة الحديثة من عام ١٩٧٣ !

يحلو له ـ واثقا ـ أن يسمى نفسه : « صانع البدايات فى عالم المسرح العربى » . وهذه حقيقة . ولابد أن هذا الفنان . سوف يحتفظ المسرح العربى بوجهه فى ذاكرة الأجيال القادمة الى ماشاء الله . ليس باعتباره رائدا وأستاذا ـ فقط ـ يقف فى طليعة الممثلين والمخرجين العرب على الاطلاق . وانما لانه ـ كذلك ـ أول من أرسى قوائم المسرح العربى المعاصر ، على أسس علمية صحيحة !

الورقة الاولى فى مفكرته ، تشير الى عام ١٨٩٦م ، تاريخ ميلاد زكى طليمات .

مكان الميلاد : حى عابدين بالقاهرة .

الأم : جركسية من القوقاز . والاب : عربى من الجزيرة العربية ، خرجت قبيلته « بنى الأسعد » مع الحسين بن على الى العراق ، تناصره . فلما استشهد الحسين ، تفرقت القبيلة أمام اضطهاد الأمويين . بعض أفرادها إتجه الى سوريا ، واستوطن مدينة حمص . والبعض الآخر ، إلى الموصل فالأناضول . ومن الأناضول هاجر أبوه الى القاهرة ، واستوطنها ، وعمل فيها بالتجارة .

الطفولة : لايحب زكى طليمات أن يتحدث عنها !

كلما نبشت حولها معه ، أشاح بذاكرته بعيدا ، ويصمت !

غير أن صديق عمره محمود تيمور ـ رائد القصة العربية القصيرة ـ يحدثنا عن طفولة صديقه زكى طليمات ، ولكن بلا تفاصيل أيضا ، فيقول :

نشأ فى بيت نعمة . يتقلب فى أعطاف رفاهة ، حتى ألف الحفاوة والاعـزاز . ولكن حوادث الدهر مكرت به ، وبيتت له غدرة عصفت بذلك التنعم واليسار . فألفى نفسه يواجه حياة تتنكر له ، وتريده على غير ماتعود . وتلزمه التعويل على جهده فى أمره .

الطفولة : تذكره بأمه . هكذا قال لى ذات مرة ونحن فى طـريقنا ـ السـادسة صباحا ـ الى حديقة «جروبى» ، قريبا من بيته فى شارع «عبد الخالق ثروت» حيث اعتدنا تناول القهوة . وكان لحظتها يحدثنى عن صفة العناد والاصرار اللتين اكتسبهما من أمه .

الدراسة : كانت أسرته تريد له أن يكون طبيبا . لكنه بعد حصوله على شهادة «البكالوريا» من المدرسة الخديوية ، إلتحق بالمعهد العالى للتربية الرياضية ! كانت الرياضة بعض ميوله الفطرية . غيرانه ـ وقبل امتحان السنة النهائية بثلاثة أشهر ـ ترك الدراسة ، والتحق «ممثلا» بإحدى الفرق المسرحية ! كان التمثيل جزءا «أقوى» فى استعداده الفطرى .

وكـانت هذه أولى مغـامرات زكى طليـمات على طـريق الهوايـة . فمتى كانت الشرارة ؟

●●●

يقول لى زكى طليمات :

«فى صباى . . كنت مولعا بمشاهـدة الفرق المسرحيـة . وكان يشـاركنى هذا الولع ، صديقاى محمود تيمور ، وشقيقه محمد تيمور . لقد استحوذت عَلَىَّ هـواية التمثيل ، حتى أننا ـ محمود ومحمد وأنا ـ كنا نؤلف الروايات (!) ونمثلها . كنا نحول البيت الى مسرح . وملاءات السرير ، إلى ستائر ، وقطع الاثاث ، الى ديكـور ، ومناظر . وكان جمهورنا من أهل البيت والزوار» !

تلك كانت البداية !

هل تذكر حادثا بعينه ، جعلك تتجه بكل أحلام الصبا الى التمثيل ؟ عندمـا حصلت على البكالوريا ، إلتحقت بالمعهد العالى للتربية الرياضية . وسافر صديقى محمد تيمور الى باريس لاستكمال دراسته العليا . كان ذلك فى عام ١٩١٣ . فلما عاد بعد ثلاث سنوات . . راح يحدثنا ـ محمود وأنا ـ حديثا ساحراً جذّابا عن المسرح هناك . ومالبث محمد تيمور أن ألقى بنفسه فى غمار المسرح . . مؤلفا ، وممثلا . وهكذا وجدتنى أنا الآخر أخوض المغامرة . كانت نزعتى الى التمثيل أقوى عندى من كل النزعات الى شىء آخر . قطعت دراستى . . وألقيت بروحى على أول الطريق الى المسرح .

كان ذلك عام ١٩١٦ .

. . وكانت هذه هى الورقة الثانية فى مفكرة زكى طليمات !

●●●

المغامرة الأولى . . والشاب زكى طليمات فى العشرين :

القاهرة مركز نشاط مسرحى مزدوج .

هناك الفرق الأوروبية الكبرى تحيى مواسمها على مسرح الأوبرا ، قادمة بكل جديد من فنون المسرح . .

وهناك مسرح « إسكندر فرح » تقدم عليه جوقة المسرح المصرى العربى مسرحيات مترجمة خالية من الغناء . .

وهناك مسرح دار التمثيل العربى ، حيث يقدم « سلامة حجازى » مسرحياته الغنائية . .

وهناك حادث مسرحى خطير عمره أربع سنوات . حادث كان له أثر هام فى تنشيط الحركة المسرحية ، وفى تطوير نتاجها من ناحية ترجمة المسرحيات ، ثم فن الممثل . هذا الحادث هو انشاء فرقة مسرحية جديدة برعاية خديوى مصر عباس حلمى الثانى ، منذ عام ١٩١٢ . وذلك على أثر عودة « جورج أبيض » من باريس ، بعد أن درس فن التمثيل على يدى الممثل الكبير « يوجين سيلفان » أحد عمداء مسرح الكوميدى فرانسيز.والى جورج أبيض .. انضم المحامى الممثل « عبد الرحمن رشدى » .

يقول زكى طليمات عن هذا الحادث :

« وهكذا ، وقف على خشبة المسرح العربى ـ لأول مرة ـ فنان درس فن التمثيل دراسة أكاديمية فى مسارح فرنسا . الى جانب فنان ـ يقصد المحامى عبد الرحمن رشدى ـ يستقر فى مستوى ثقافى واجتماعى لم يعرفه المسرح العربى بين العاملين فيه . وفيما عدا هذا الكسب .. فقد نشطت الأقلام حينذاك ، الى تقديم مترجمات من طراز أرفع مستوى مما كان قائما ، من حيث الأسلوب البيانى ، ثم من حيث توخى الأمانة والدقة فى النقل .

●●●

فى ذروة العطاء المسرحى لفرقة جورج أبيض .. ألقى الشاب زكى طليمات بنفسه فى أتون المغامرة المسرحية !

الشباب ، والجذوة ، والحماس المبكر .. كل ذلك جعله أول الأمر يستخف بتلك النظرة الضيقة الموجهة من عينى المجتمع الى المسرح والممثل . كان التمثيل فى ذاك الوقت مخاطرة صعبة لمن يخاطرها ، حين وجد لموهبته مكانا فى فرقة

جورج ابيض . كان ذلك عام ١٩٢٠ . ولمدة عامين ، إستطاع الشاب زكى طليمات أن يؤكد وجوده الى جوار جورج أبيض ، وعبد الرحمن رشدى . لكن - بحساسيته الشديدة وعناده الأشد - ضاق ذرعا بالمناخ غيرالصحى الذى يسود علاقات العمل فى المسرح ، خاصة وأن امتصاص هذه المتاعب لم يكن يؤدى الى مغنم ، ولا يصنع الجاه لصاحبه فى ذلك الوقت !

عندئذ .. قرر الشاب زكى طليمات « ٢٦ سنة » أن يعتزل التمثيل (!) ضنًّا بوقت يضيع ، وشباب يذهب هباء !

وهكذا بين يوم وليلة .. إنتقل من خشبة المسرح « ممثلا » .. الى حديقة الحيوان .. موظفا ! أصبح موظفا بوزارة الاشغال براتب شهرى قدره « تسعة جنيهات ، وثمانون قرشا ، وسبعة مليمات » !!

●●●

فى صفحاتها الفنية ، كتبت مجلة « الكشكول » هذا الخبر :

« أهدت وزارة الاشغال ضبعا ذكراً .. الى حديقة الحيوان .

كان زكى طليمات هو المقصود بـ « الضبع الذكر » !

.. وفى حديقة الحيوان .. سكن الى الصمت ، والتأمل ، والدراسة .

كان يقف بين نظرتين عميقتين : نظرة على سنواته التى مضت بكل ملابساتها . ونظرة على سنواته المقبلة بكل مايدخره من أحلام .

وراح كل شيء فى عالم الحديقة ، يصب فى الرؤى المسرحية لديه : وجوه الحيوانات وهى تنفعل صريحة دون افتعال .. الأشجار ، والكهوف ، والبحيرات ، والتلال . النور المنسكب من قرص الشمس نهارا ، ومن وجه القمر ، وذبالات المصابيح ليلا . الجمهور .. رجال ونساء وأطفال ، مواكب ودهشة ، وفضول ، ومشاعر متباينة ومتسقة فى وحدات هذا المسرح الكبير .. ممثلوه من الضوارى المستأنسة وراء القضبان ، ومن الطيور الجوارح والزواحف ، وحيوانات البحار . مفردات من أسرار هذا الكون العظيم ، فى مواجهة الفرح الغامر يطل من عيون الاطفال فى دهشة الحياة البكر مفرغة من ذكريات الخوف .. أو التوجس !

فى حديقة الحيوان .. كان زكى طليمات يستجمع كل طاقاته الفطرية المتوثبة ليكسر الأسوار .. ولينطلق الى حريته بلا مدى : المسرح !

فقط .. كان يترصد الفرصة .. ولكن بلا ملابسات المغامرة الأولى !

وواتته الفرصة ، كما كان يشتهيها !

دعت الحكومة الى مسابقة فى التمثيل ! إندفع اليها زكى طليمات بكل مالديه من طاقة الموهبة ، واحتشادات الصمت ، والتأمل ، والحلم . وبتفوق .. إجتاز

المسابقة .. وكانت الجائزة : إيفاده الى باريس مبعوثا رسميا للتخصص فى دراسة التمثيل !!

●●●

الورقة الثالثة فى مفكرة زكى طليمات تحمل الرقم ١٩٢٥ ، عام السفر الى باريس ، ولمدة خمس سنوات !

من حديقة الحيوان فى القاهرة ، الى معهد التمثيل فى عاصمة النور والثقافة ، لدراسة التشخيص .. ثم الى مسرح الأوديون لدراسة الإخراج .. فإلى الكوميدى فرانسيز لدراسة الإلقاء .. فإلى جامعة السوربون لدراسة تاريخ الفنون الجميلة .. وأخيرا .. الى معهد الفن فى برلين، لدراسة الاضاءة !!

فى خمس سنوات .. إمتلأ زكى طليمات بكل المناهج العلمية التى تؤصل المسرح .. وضع مواهبه واستعداده ، وميوله فى اللحظة التاريخية المناسبة . يستطيع الآن أن ينطلق بكل الأجنحة : الموهبة .. والعلم .. والمشاهدات .. والتجارب . وكانت نقطة الانطلاق الحقيقية فى حياته كممثل .. عندما وقف على خشبة « الكوميدى فرانسيز » ليلعب دور «أرباجون » فى مسرحية «البخيل » لموليير ، باللغة الفرنسية . ثم دور « ياجو » فى مسرحية « عطيل » لشكسبير . والدور الأخير لعبه زكى طليمات برؤيته الخاصة . فهو يرى أن مسرحية « عطيل » لا تقوم على موضوع « الغيرة » كما هو شائع.لكنها ـ كما يراها هو ـ قائمة على عدم التكافؤ فى الزواج !

وعندما دوى مسرح « الكوميدى فرانسيز » بالتصفيق للممثل المصرى زكى طليمات .. كانت الورقة الرابعة فى مفكرته تلوح وبداخلها رقم ١٩٣٠ ، عام العودة من باريس ، إلى القاهرة .. الى نقطة انطلاق المسرح المصرى العربى الحديث !!

●●●

زكى طليمات الذى أقلع عن التدخين فى أوائل الخمسينيات ، مازال يحتفظ بين سبابته وإبهامه بسيجارة لايدخنها أبدا . بين الحين والحين ، يشعل عود الثقاب ، ثم يقربه من مقدمة السيجارة كأنه يوشك أن يشعلها .. لكنه يطفىء عود الثقاب قبل أن يلتحم اللهب بمقدمة السيجارة . ثم يمتص نفسا عميقا من السيجارة وهى مطفأة . نافثا ماكان ينبغى أن يكون دخانا سابحا فى الهواء مندمجا فى سمت المتأهب للحديث والإنصات معا . هو على أهبة الحديث أكثر كلما التقينا . ينهل من فيض هذه الذاكرة التى لاتشيخ . تجاربه المزدحمة ، مصفوفة فى غرفاته الذهنية .. حية ، ونابضة ، ومتفجرة بالحيوية ، حتى ليبدو

على الدوام ، وكأنه ولد للحياة منذ لحظات . وأنه متحفز لميلاد جديد فى اللحظة القادمة !

قلت : لماذا يحلو لك أن تطلق على نفسك : صانع البدايات فى رحلة المسرح العربى ؟

.. أطفأ عود الثقاب ، وجذب نفسا من السيجارة التى لم تشتعل . وبعد أن نصحنى أن أتوقف عن التدخين .. قال :

ـ الميلاد هو أروع شىء فى الوجود . إنه بداية رحلة جديدة . والبدايات فى الفن نوع من عمليات « الخلق » .. صعبة ، لكنها ممتعة . وكلما كان « الخلق » صعبا .. كلما كانت المتعة أعمق !

● ماهى ـ إذن ـ أول متعة حققتها بعد عودتك من باريس ؟

ـ أنشأت أول معهد عربى للتمثيل .. فى القاهرة . كان ذلك فى عام ١٩٣١ . وكان من أساتذته الدكتور طه حسين ، والدكتور أحمد ضيف ، والدكتور محمد مظهر سعيد . وكان الاستاذ جورج أبيض ، وأنا ، نقوم بتدريس مادتى الإلقاء والأداء التمثيلى . لكن هذه المتعة التى لم تدم أكثر من عام واحد ، واعدتنى بمتعة أخرى ، حين قامت الحكومة بإلغاء هذا المعهد تحت ضغط الحملات الصحفية الساخنة التى أثارها بعض أهل الجمود والتزمت ، بدعوى أن الدراسة بالمعهد تتنافى وتقاليد العرف الاجتماعى السائد فى ذلك الوقت !

● تقول إن إلغاء المعهد ، واعدك بمتعة أخرى ؟!

ـ نعم . ولقد حققت هذه المتعة فى عام ١٩٤٤ حين قمت مرة أخرى بإنشاء معهد التمثيل . ولايزال قائما الى اليوم . إنها متعة الانتصار على التخلف والوقوف بجانب الحضارة .

● وفيما بين الفترة من عام ١٩٣١ ، حتى عام ١٩٤٤ ؟

ـ لن أتحدث عن المسرحيات التى قمت بإخراجها ، والتمثيل فى بعضها . إننى أتحدث فقط عن البدايات التى كنت أغرسها على طريق المسرح العربى .

● ليكن .. فهذا بالضبط ما أقصده .

ـ بعد عودتى من باريس .. شغلت بالتخطيط لتشكيل أول فرقة مسرحية تشرف عليها وزارة المعارف إداريا وفنيا . وقد برزت هذه الفرقة ـ إلى الآن باسم الفرقة القومية ـ عام ١٩٣٥ . ومهمتها تقديم الأعمال المسرحية الجيدة والممتازة . مترجمة ، ومؤلفة بالعربية الفصحى .

● أعرف أنك قمت بالاشراف على انشاء المسرح المدرسى والتخطيط له .

ـ نعم . وقد بدأت هذه التجربة فى عام ١٩٣٧ ، بأمل أن تصبح هواية

التمثيل من ألوان النشاط المدرسى الذى يزاوله الطلبة فى أوقات فراغهم ، مثل كرة القدم ، والتنس . فكان أن أصبح بكل مدرسة ثانوية وفنية ، فرقة مسرحية ، تشبع هوايات أعضائها ، بتقديم مسرحيات فى حفلات خاصة وعامة . كما تعمل بطريق غير مباشر على خلق . جمهور يعشق المسرح .

● وجمهور القرية .. هل شغلت به من الناحية المسرحية ؟

ـ طبعا . فى عام ١٩٤٥ خططت وأشرفت على إنشاء المسرح الشعبى . ومهمته مخاطبة قطاعات الريف والمصانع ، بواسطة عروض مسرحية تتناول مشاكلهم وحياتهم . وكذلك الترفيه عنهم ، وإكسابهم عادة مشاهدة المسرح .

●●●

عندما يتحدث زكى طليمات عن المسرح ، فهو أب يتحدث عن ابنه البكر . انه سعيد بكل الجهود التى بذلها بالحب ، والتفانى والاخلاص . وهو فى تفكير دائم ومتطلع من أجل المسرح . يحلم له كثيرا . ولا يتوقف عند مرحلة الحلم . بل هو يسعى فورا الى تحقيق الأحلام ، بالعمل .

فى عام ١٩٥٧ قام بأول تطوير للفنون الشعبيه عن طريق المسرح ، حين قدم أوبريت « ياليل ياعين » ، وكان ذلك حدثا فنيا كبيرا وهاما .

وفى عام ١٩٧٢ قدم زكى طليمات تجربة مسرحية هى الأولى من نوعها إذ قدم ـ فى إطار المسرح الاستعراضى ـ صورا من تاريخ مصر القومى فى الأماكن التاريخية لهذه الصور . وشاهد الجمهور العربى أكبر عرض مسرحى فى منطقة الاهرامات وأبى الهول تحت عنوان « موال من مصر » وقد اشترك فى هذا العرض بضعة آلاف من الممثلين ، والمغنين ، والراقصين ، والجنود .

إن زكى طليمات يرى أن التاريخ العربى ملىء بقصص البطولة والأبطال ونحن فى حاجة ماسة لأن نتمثل التاريخ القومى لبلادنا . إن الإيمان بأنفسنا ، يجب أن ينبع من داخلنا .. من تاريخنا .. ومن حضارتنا .. من جذورنا . وهى جذور تستطيع أن تتصدى بقامة الشعب العربى لكل العقبات والمصاعب !

●●●

فى عام ١٩٥٣ ، كان عمر زكى طليمات فى شهادة النشاط المسرحى ـ منذ عاد من باريس ـ ثلاثة وعشرين عاما . سنوات قصيرة فى عمر المشروعات الكبرى . ومع ذلك عندما ألقى نظرة على قلب المسرح المصرى .. أسعده أن وجده يدق بانتظام .. وبحيوية .. هامسى ذى حبات الغرس ، تنبت ، وتنمو ، وتعطى الثمار . فهل يسترخى زكى طليمات إستجماما من عناء الرحلة ، سعيدا باجترار ذكريات الغرس ، والطرح ، فى حقل المسرح ؟

هذا رجل لايميل إلى الاسترخاء . بالعكس .. هو يندفع دائما تجاه الحركة .

فى ذلك العام ١٩٥٣ طلب زكى طليمات إحالته إلى المعاش . لم يتقاعد بالطبع . إنما سافر إلى تونس .. مكث هناك أربع سنوات أنشأ خلالها الفرقة البلدية القومية للمسرح . ومعهدا للتمثيل .

عندما يفكر زكى طليمات فى المسرح ، فهو بالضرورة يفكر فى الوطن العربى كله . ومن هذا المنطلق ، تجسدت تجربته الفريدة الرائدة فى زرع المسرح فى دولة الكويت !

قلت لزكى طليمات ، وأنا أتأمل أخاديد السنوات فى وجهه ، وهى أخاديد أكسبت وجهه وسامة الانتصار على السنوات ، والوقت ، والمصاعب :

● كيف كانت تجربتك مع المسرح فى الكويت ؟

- فى عام ١٩٦١ ، استدعتنى حكومة الكويت لنفس السبب الذى استدعتنى له تونس . على أننى فى الكويت واجهت عقبة شاقة . هى التقاليد التى لاتتيح للفتاة الكويتية أن تقف على خشبة المسرح ، لكى تمثل . ومن غير المعقول إنشاء فرقة مسرحية دون أن تكون من الجنسين !

● كيف إذن تغلبت على هذه العقبة ؟

- أقنعت المسئولين بأن عزلة الفتاة عن خشبة المسرح ، ظاهرة لها مضارها الاجتماعية ، باعتبار أن الرجل سوف يقوم بهذا الدور . وبناءعليه . . وجهت نداءً من التليفزيون ، إلى كل فتاة تجد فى نفسها الميل إلى التمثيل على خشبة المسرح ، أن تتقدم للاختبار الذى سنعقده . وكان العدد المتقدم منهن قليلا . ولم يكن من بين هذا العدد القليل من يصلح للتمثيل غير فتاتين : « مريم الصالح » و « مريم الغضبان » .

● ومعهد التمثيل ؟

- بعد إنشاء الفرقة المسرحية . . إتجهت إلى المدارس ، وأنشأت المسرح المدرسى . هذا نبع لاينضب لاكتشاف الفنانين الشبان والشابات ثم بعد ذلك ، أنشأت معهد التمثيل لصقل هذه الخامات وإعدادها على أسس علمية وفنية صحيحة . ولكى نوسع دائرة الجمهور المسرحى . . أشرفت على إصدار « سلسلة المسرح العالمى » التى تقدم حتى الآن أفضل تجارب المسرح فى العالم . وعلى مدى السنوات العشر التى قضيتها فى الكويت ، أصبح المسرح حقيقة حضارية ثابتة . الأمر الذى كبرت معه فرقة الكويت المسرحية ، وأصبحت الآن ثلاث فرق :

المسرح العربى ، والمسرح الكويتى ، والمسرح الشعبى .

قلت لزكى طليمات ، عائدا به مرة أخرى إلى مرحلة قديمة فى تاريخ المسرح :

● أنت الآن فى السن التى لاتجعلك تميل إلى الهوى وأنت تدلى بآرائك فى زملائك الفنانين القدامى من أبناء جيلك .. و ..

قاطعنى زكى طليمات محتجا وفى صوته نبرة غضب أبوية :

ـ عمرى ماكنت مغرضا فى كل الآراء التى صرحت بها . إننى أعشق الموضوعية ، ولا أنحاز لغير الفن والموهبة .

قلت : إننى من الجيل الذى لم يتح له أن يشاهد جيلا من المسرحيين الذين قرأنا عنهم فقط . وأحب أن أسمع منك رأيا فى بعضهم .

قال : مثل من ؟

قلت : جورج أبيض .

قال : كان جورج أبيض ، وهو يلقى نصوص حواره ، يؤلف ظاهرة جديرة بالوقوف أمامها . كان إلقاؤه ـ بالفصحى أو باللهجة العامية ـ يجنح إلى إيقاعات وموسيقى صوتية غير مألوفة للأذن العربية . إنها إيقاعات وموسيقى اللغة الفرنسية ، التى تعلمها فى المدارس الفرنسية . ردرس بها المسرح فى فرنسا ، وأدى بها أدواره فى الفرق الفرنسية التى كانت تجوب أنحاء الأقاليم فى باريس .

● وعزيز عيد ؟

ـ كان خصب الموهبة . ولو لم يكن عزيز عيد يعانى من نقص نفسى يرجع إلى قصر قامته وصوته المحدود .. لما أخذنا على أسلوبه فى الأداء ، ميله المستتر إلى المبالغة . لكن عزيز عيد يرجع إليه الفضل فى التنبيه إلى أهمية الإخراج المسرحى .

● ونجيب الريحانى ؟

ـ ممثل من طراز جيد بفطرته . يملك صدق الإحساس وعمق الانفعال . يضاف إلى ذلك جاذبيته وحضوره على خشبة المسرح . وهما قوتان تؤلفان « النعمة » التى تجود بها الفطرة على الممثل .

● ويوسف وهبى ؟

ـ إذا صح أن تكون لقوة الشخصية مظاهر وعلامات ، فإن العنف فى مظاهر الثقة بالنفس ، والنزعة المستمرة إلى التحدى .. يعتبران من أبرز ملامح شخصية يوسف وهبى . وهو أيضا الممثل العملاق بقوة طبعه ، ووفرة حيويته ، وبشخصيته . إلا أن هذه الصفات لديه أوسع من علمه بفن التمثيل . فضلا عن أنه لم يحاول أن يكتسب جديدا ذا أعماق . ومع ذلك ، فإن ليوسف وهبى أدوارا تشيد بأنه ممثل متعدد الوجوه .. ويحسن التقلب فى شخصيات عديدة

● أرجو أن تنسى الآن أن « روز اليوسف » كانت زوجتك . . وأن تقول لى رأيك فيها كممثلة .

قال ، وقد برقت عيناه بومضة من شرود خاطف :

ـ كانت ـ وبالموضوعية التى أتوخاها دائما ـ ذات حضور ملفت فوق خشبة المسرح . . لأن وراء ذلك « تكنيك » متين فى فن الأداء التمثلى وكانت لديها تلك المقدرة على الخلق التمثيلى الذى نسميه أحيانا « التقمص » ومع ذلك لم يكن يبدو عليها أنها تمثل . وهذه مرتبة حين يبلغها الممثل ، فإنه يكون قد وصل إلى مرتبة البلاغة الرفيعة ، وأصبح أسلوبه فى الأداءِ هو السهل الممتنع .

● أخيرا . . هل لى أن أعرف رأيك فى زكى طليمات . . الممثل ؟

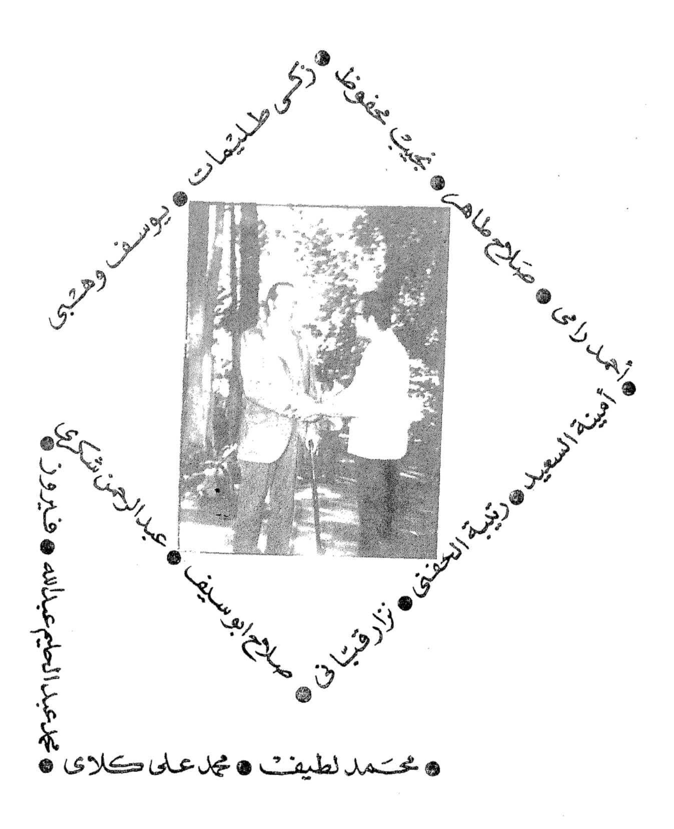
ـ هو ممثل سطع له إسم . . لأنه لم يقلد كبراء الممثلين فى عصره . بل كان ينزع دائما إلى أن يكون إبن نفسه . . . وعلمه . . . وتقديسه لمستقبل المسرح .

●●●

عند هذا الحد من الحوار . . أحسست أن زكى طليمات الممثل ، والمخرج ، وصانع البدايات الصحيحة فى رحلة المسرح العربى ، قد أفضى لى ، بما أردت ، من سجلات ذاكرته الكثير . . فهو ينهل من ينابيع رحلته الخصبة . وكلها من واقع تجارب عمرها خمسون عاما ، وأكثر .

بقى أن أشير إلى بقية ملامح الصورة . فقد كان زكى طليمات فى شبابه ، واحدا من الرواد فى كتابة القصة القصيرة . وكان أول ناقد مسرحى يتناول دراساته بالمنهج العلمى . وله فى المجالين نتاج نتمنى لو أنه صدر فى كتب ، لكى لا يغيب من مراجع الدارسين فيما بعد ، حين يتناولون بالبحث والتأريخ للمسرح العربى المعاصر فنانا من كبار مسرحيينا ، وأول رائد عربى أرسى قواعد المسرح فى بلادنا بأصوله العلمية .

« يونيه ١٩٧٣ »


نجيب محفوظ
زكى طليمات
يوسف وهبى
صلاح طاهر
أحمد رامى
أمينة السعيد
رتيبة الحفنى
نزار قبانى
صلاح ابو سيف
عبد الرحمن شكرى
فيروز
محمد عبد الحليم عبد الله
محمد لطيف
محمد على كلاى

يوسف وهبى

بصوته المتهدِّج ، المعبِّر ، الممتلىء حضوراً وثقة . . أجهشت ذكريات الفنان العملاق يوسف وهبى . كان موعدنا بعد الغروب فى حديقة منزله بشارع الهرم . أضواء المصابيح المتفرقة تتسلل إلينا من وراء الأشجار ، كأنها تسترق السمع معى إلى صوت الفنان وهو يجهش ماضيه من فوق مرتفعات ٧٥ عاما . والهدوء من حولنا أشبه بلحظات السكون التى تسبق الستار فى المسرح !

قال ، وكأنما تجمعت أصداء السنين جميعا فى صوته :

« عشرات السنين عشتها بين مد وجزر ، فى قصور فاخرة . . وفى غرف فوق السطوح ! ثروة كبيرة ورثتها عن أبى . . أضعتها . . وكنت أستردها . . ثم أفقدها من جديد !

دوامة لا تهدأ . فقر وغنى . شظف وترف . ظلام وأضواء . ربح وخسارة ، انتصار وهزيمة !!

لكننى لم ألق سلاحى أبدا . .

لم أغتر بالثراء . . ولم أجزع من الإفلاس !

● عن أى زمن تتحدث ؟

ـ عن زمنى كله . . كان هذا طابع الرحلة !

● وخشبة المسرح . . كيف وجدتها ؟

ـ إمرأة متقلبة . . أذاقتنى حلوها ومرها . وأعطيتها نفسى وعمرى !

● وكيف كان طعم الألم ؟

ـ أشهى من مذاق العسل ـ لأنه ألم من أجل الحقيقة .

● والحقيقة ؟

ـ كانت فى هدف نبيل : أن ينتشر الوعى التمثيلى بين طبقات الجماهير العربية . وأن تسود رسالة المسرح كل بلاد الوطن العربى .

● والنتائج . . هل أنت راض عنها ؟

ـ راضٍ . . وغير راضٍ !

● كيف ؟

ـ حركة الوعى المسرحى فى مساحات كبيرة من وطننا العربى ، تجعلنى أستعيد ذكريات الكفاح الأولى بالفخر والاعتزاز والثقة . كانت لى أحلام ، وقد تحققت .

إن الأحلام الإنسانية لاتموت ، إلا إذا تجاهلنا النضال من أجلها ، مهما كان الثمن ! وقد دفعت الثمن غاليا من أجل أن تتحقق . وهذا مبلغ الرضا .

● وعدم الرضا ؟

ـ فى كل بلاد الدنيا يحترمون الجهود الإنسانية الأولى . أقصد التراث . يعتزون به ويحتفلون . إنه دروس على الطريق . شموع . وتكريم لجهود الرواد . وإخصاب للبذور الأولى .

فى بريطانيا . . فرق خاصة تقدم أعمال شكسبير . .

وفى فرنسا . . يعيدون مسرح موليير . .

وفى ألمانيا . . يقدمون أعمال بريخت . .

إلا فى بلادنا . . التراث فى بلادنا ينزوى أمام ضوضاء العصر . وكأنما الأجيال الجديدة ولدت من فراغ ! وكأنما التراث « موضة قديمة » عفا عليها الزمن !!

●●●

ڤيللا يوسف وهبى ـ وهى من الطراز الأوربى ـ غارقة فى أحضان غابة كثيفة ، سامقة الأشجار ، متعانقة الفروع . الأشجار فى مساحة الظلال والسكون ، أشبه بشخصيات خرافية فى مسرح الطبيعة ، تتحاور حينا بالصمت ، وحينا بالحفيف كلما هبت النسمات . والهواء فى غابة الڤيللا محمل بالمزيج المركز من عبق الورد ، والكريزانتيم ، والكاميليا . وتحت شعاع الأضواء المتخفية المتسللة ، تتهادى زهور الزينة وتتمايل ، كأنها راقصات باليه فى مسرح الأشجار ، والعطر ، والقمر !

كان يوسف وهبى ينتظر مقدمى ، فى حديقة الڤيللا . . أقصد الغابة . كان يرتدى حلة صيفية بنية اللون . القميص الأبيض مقفول ، وبلا رباط عنق . وعلى عينيه منظار يحمل الدرجات الأولى من اللون البنى. وأمامه ، على منضدة متوسطة الحجم ، تليفزيون صغير . وعن يساره منضدة صغيرة عليها تليفون .

أطفأ التليفزيون ، حين كنت أقترب منه ، قادما . مدَّ لى يده وهو جالس :

ـ أعتذر عن عدم النهوض لمصافحتك . إن ساقىَّ لا تستجيبان لحركة النهوض التلقائية كلما أردت ذلك . لقد أخطأ الأطباء فى « بيروت » علاجى ، مما أثر على حركة الدورة الدموية ، وذلك أثَّر بدوره على حركة الساقين . لكنى الآن ـ على يدى طبيبى الخاص ـ آخذُ فى التحسن .

قلت ، متعمداً أن أجذبه بعيداً عن حديث المرض :

● بماذا توحى لك هذه الغابة ؟

قال ، وكأنه يقصينى عن مشاعر اللحظة التى مضت :

- هى كما ترى غابة بلا وحوش . غابة مستأنسة . . أنا الذى أشرفت على زراعتها حتى صارت كما ترى .

● هذا ، لأنك كنت تدرس الزراعة فى صباك ؟

- بل لأننى أحب الغابات منذ صغرى : إنها دليل القوة ، وتعبير عن فحولة الطبيعة ، وقدرتها على تحدّى الفضاء . ومن أجل هذا الحب ، كنت أسافر كل عام إلى سويسرا ، وألمانيا . وفى « بادن بادن » كنت أقضى معظم وقتى فى « الغابة السوداء » أجمل غابة وقعت عليها عيناى . إننى أعشق الظل . . ولا أطيق الشمس ، حتى فى فصل الشتاء !

● كيف إذن تحملت الأضواء كل تلك السنوات ؟

- الأضواء هى عيون الجماهير على الفنان . وهى « الظلال » التى يجد الفنان فى رحابها ملاذه من « هجير » المعاناة والصراع من أجل إثبات الوجود . إنها شمس حنون تتيح لى أن أفتح عينىَّ جيدا على فنى ، وعلى الجمهور .

● وانحسار الأضواء ؟

قال يوسف وهبى بنبرة حزينة أشد الحزن :

- ليس أقسى على الفنان من ظلال الإهمال والنسيان والتجاهل !

قلت : وأنت فى عزلة المرض . . من الذى يزورك من أبنائك الفنانين ؟

قال ، وفى صوته كبرياء الدموع التى تقاوم الانهيار :

- لقد سألتنى سؤالاً محرجا . فبالرغم من أننى رب أسرة فنية عمرها خمسون عاما ، وأبنائى بالعشرات . . إلاَّ أنه مع الأسف الشديد ، يندر أن يزورنى أحد ، أو حتى ، يستفسر بالتليفون . باستثناء إبنتى الفنانة القديرة أمينة رزق !

● كيف إذن تواجه العزلة ؟

- الكتاب هو خير صديق لى . فأنا أعشق القراءة . ولولاها لضقت ذرعا بالوحدة . ومع هذا ، فأنا أخصص من وقتى وقتا للاطمئنان على أبنائى .

● كيف ؟

- أتابع نشاطهم على شاشتى التليفزيون والسينما . ومن وراء الميكرفون فى الإذاعة .

● هل تذهب إلى السينما بانتظام ؟

- بل السينما هى التى تأتى إلى بانتظام ، عن طريق شاشة التليفزيون .

● هل تشغلك الآن مشروعات فنية جديدة ؟

- أنا قابع فى دارى كما ترى . ومازلت فى فترة العلاج بالرغم من التحسن

الكبير الذى أشعر به الآن . لكن فترة العلاج هذه يتخللها التفكير فى وضع قصص سينمائية سوف أقوم بتمثيلها .

● لماذا قصص سينمائية ، وليست مسرحيات ؟ !

ـ لأنه ليست لى فرقة مسرحية كما كان لى فى الماضى . ومع ذلك ، فأنا لا أرفض الاشتراك فى أى عمل جيد ، سواء فى المسرح ، أو على شاشة التليفزيون .

● كيف إذن تقضى يومك منذ الصباح ، حتى تأوى إلى النوم ؟

ـ فى الصباح ، أقوم ببعض التمرينات الرياضية ، لكى أحافظ على لياقتى كممثل . ثم أتناول وجبة الفطور . ثم أقرأ الجرائد . ثم أنزل الى الحديقة وأمشى فيها حوالى نصف ساعة . وبجوار كشك الحمام أجلس لأراقبه مدة طويلة . وأعجب بحنان الأم على وليدها ، وهى تغذيه من فمها .

بعد ذلك ، أهرع إلى هذا المقعد الذى أجلس عليه معك ، لأقرأ كتاباً . فإذا بلغت الساعة الثانية ظهرا ، تناولت وجبة الغداء . ثم أستريح بالنوم وقت القيلولة . هذا لأننى أجد الفرصة الآن للراحة . أما فى الماضى ، فكنت أعمل فى السينما والمسرح يوميا . ولم أكن أنال فترات الراحة إلاّ فى أسفارى للخارج .

. . . بعد تناول العشاء ، أشاهد التليفزيون لبعض الوقت ثم أعود الى القراءة حتى الثانية أو الثالثة صباحا .

● ومتى تستيقظ فى اليوم التالى ؟

ـ فى السادسة تماما .

●●●

فجأة . . لاحظ يوسف وهبى أننا قد نسينا أكواب الليمون المثلجة أمامنا . . عندئذ نادى واحداً من العاملين لديه ، وطلب منه إحضار كوبين آخرين . . ثم اتجه إلىّ قائلاً وكأنه يعتذر :

ـ كانت زيارتك لى من أجل الاطمئنان على صحتى ، فإذا بنا نخوض فى مسائل الفن .

قلت : إننى أطمئن على صحة جزء هام من تاريخ حركتنا المسرحية . . والحديث هنا ليس إلاّ دليلا على أنك بخير . . وأن صحتك على مايرام .

« ومضت فى عينيه الخضراوين نظرة امتنان ، زرعت فى صدرى ، إحساسا غامضا بالحزن . فقد شعرت لحظتها حجم المعاناة ، خلف كبريائه المهيب ، وهو يواجه المرض وحيداً ، مفتقدا لمسة الوفاء من أصدقائه وتلاميذه ! »

قلت متعمداً أن انتزعه من ضباب اللحظة :

● ترى ماهى ملاحظات أب المسرح العربى ، على واقع الحركة المسرحية فى بلدان الوطن العربى ؟

قال دون أن يجهد ذاكرته :

ـ هناك نهضة كبيرة فى جميع البلاد العربية التى زرتها.لقد كونت الحكومات فرقا تابعة لها . وكثير من الشباب العربى درس فنون المسرح . ولقد شاهدت العديد من هذه الفرق فى تونس ، والجزائر ، ولبنان ، والكويت ، وفى سوريا تفتحت براعم كثيرة ، وتكونت فرق تمثيلية تجمع وجوها جديدة . وهى فرق لاتقل فى قيمتها عن فرق الدرجة الأولى . أما فى لبنان ، فليس هناك فرق تابعة للحكومة . ولكن هناك جماعات من الشباب المثقف كونوا عدة فرق ، إلى حد أن بيروت أصبح بها ثمان فرق تعمل معظم شهور العام . وعندما أقارن بين الأمس واليوم ، يزداد إعجابى بهذه النهضات . فلم يكن هناك فرقة مسرحية واحدة فى الثلاثينات والأربعينات . وكانت فرقة رمسيس تقوم برحلة لزيارة هذه البلاد ، فى تلك الفترة ، فلا تجد بها أية فرقة ، إلا فرق الهواة .

يصمت يوسف وهبى لحظة ، كمن تذكر شيئا هاما . ثم يستطرد :

ـ وبهذه المناسبة ، أرجو أن أنتهز الفرصة لكى أعبر عن شكرى لكل هؤلاء الذين جاءتنى رسائلهم من مختلف البلاد العربية ، مستفسرين عن صحتى وداعين لى بالشفاء . إن مثل هذا النوع من الرسائل ، ومن أشخاص لاتعرفهم بالرؤية . . من طبيعتها أن تدفق الحياة فى عروق الفنان . فما بالك إذا كان الأصدقاء والأبناء لا يسألون !!

« مرة أخرى تراوده أحزان الوحشة ، والإحساس بعقوق الأصدقاء . »

قلت :

● مازال الجمهور يتذكر دورك الكوميدى فى فيلم « ميرامار » ويضحك . هل تجد نفسك أكثر فى أدوار الكوميديا . . أم المأساة ؟

قال :

ـ أجد نفسى فى كليهما . والمثل الفرنسى يقول : أحسن ممثلى الفكاهة . . هم ممثلو الدراما .

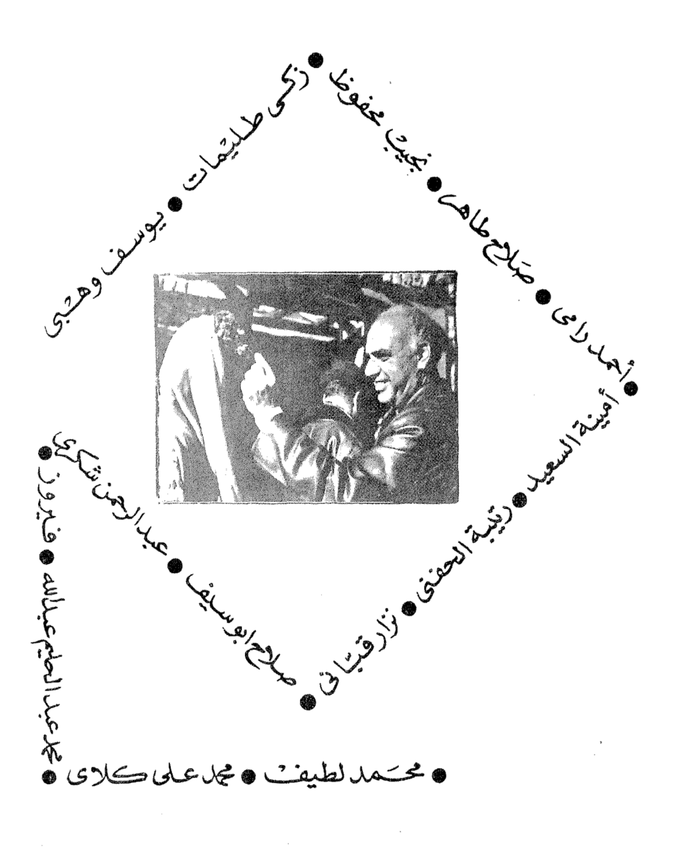
مادمت أدرس شخصية الدور ومواقف المسرحية . . فأنا أتأثر بها . لكننى أمثل الفكاهة بنفس طريقة التمثيل الدرامى . فلا أخرج عن الشخصية . ولا أحاول الإضحاك . إن الطابع الجدِّى فى الموقف الفكاهى يضحك أكثر من تعمد الإضحاك بحركات ساذجة !

« تناول يوسف وهبى رشفة من كوب الماء ، لا الليمون . . ثم استطرد :
ـ لقد ذكرتنى بقول صديقى الأديب توفيق الحكيم بمناسبة أدوارى الفكاهية ، حين قال لى : لقد أخطأت الطريق ، فأنت أصلح للكوميديا . غير أننى فى الحقيقة أردت ـ عندما كونت فرقة رمسيس عام ١٩٣٢ ـ أن أرد إلى المسرح الجدِّى اعتباره . فقد تغلبت الفكاهة فى ذلك العهد على مسارح الدراما فأغلقت أبوابها ، وتشرد فنانوها . إذ كانت شخصية « كشكش بيه » التى ابتكرها نجيب الريحانى قد قضت على جميع الفرق الجادة ، إلى درجة أن جورج أبيض هاجر وقتئذ من مصر بعد أن حل الخطر ، وقال يوم سفره جملته المشهورة : وداعا يا بلد كشكش !!

●●●

الطريق من حديقة الڤيللا إلى الباب الخارجى ، طريق مرصوص بأشجار الجازورين ، شاهقة الارتفاع . وهو طريق يقتضى من السائر على قدميه وقتا لا يقل عن سبع أو ثمان دقائق . فلما أبدى يوسف وهبى رغبته فى أن يصحبنى حتى باب الخروج مودعا إياى . . قلت لنفسى : هى فرصة لكى أطمئن على تحمل ساقيه المتعبتين للسير . ونهض يوسف وهبى فى بطء متماسك عنيد . عصاه فى يده اليسرى ، يتوكأ عليها دون أن يبدو عليه أنه يتوكأ . فلما أصبحنا بين صفىّ « الجازورين » . . لم أشهد فروقا كبيرة بين قامة يوسف وهبى المنتصبة فى الفراغ ، وبين أشجار الجازورين الشاهقة . كلاهما يحمل صفة الشموخ !!

« **فبراير ١٩٧٥** »


نجيب محفوظ
زكى طليمات
يوسف وهبى
صلاح طاهر
أحمد رامى
أمينة السعيد
رتيبة الحفنى
نزار قبانى
عبدالرحمن شكرى
صلاح ابوسيف
فيروز
محمد عبدالحليم عبدالله
محمد لطيف
محمد على كلاى

صلاح أبوسيف

فى كتابه « تاريخ السينما » الذى يتناول فيه الناقد والمؤرخ الفرنسى چورچ سادول ، تاريخ السينما فى العالم ، منذ أن بدىء فى اختراعها عام ١٨٣٢ ، أشار إلى صلاح أبوسيف ، كواحد من أحسن مخرجى السينما المعاصرين !

لقد كتب سادول من بين ماكتب عنه :

« صلاح أبوسيف واحد من أحسن مخرجى السينما المعاصرين.تتميز أفلامه بقوة إحساسه بالحياة الشعبية ، وبالواقع الإنسانى » .

وعندما أثبت الناقد والمؤرخ الفرنسى هذا الرأى فى أخطر وأهم مجلد عن السينما فى العالم ، لم يكن صلاح أبوسيف قد أمضى فى ميدان الإخراج السينمائى غير تسع سنوات . وكان حصاده من الأفلام التى أخرجها لشاشة السينما ، عشرة أفلام فقط ! ومع ذلك تنبه إليه أكبر ناقد ومؤرخ سينمائى فى العالم . إعتبره واحدا من أهم مائة سينمائى ، من بينهم شارلى شابلن ، وسيسل دى ميل ، وإيزنشتاين ، وهيتشكوك ، وأورسون ويلز ، ودى سيكا ، وبورفكين ، ومخترع السينما نفسها : لويس لامير !!

وعندما أثبت الناقد والمؤرخ الفرنسى هذا الرأى . . لم يكن صلاح أبوسيف . قد شغل الرأى العام السينمائى ـ عالميا ومحليا ـ بعد ، بهذه الجوائز العديدة التى راحت تنهال على أفلامه ، تقديرا له كأحسن مخرج سينمائى مصرى . فمنذ عام ١٩٥٥ وحتى الآن . . ضربت أفلام صلاح أبوسيف الرقم القياسى فى الحصول على الجوائز المحلية ، والدولية.ثلاث جوائز من الدولة فى مسابقات السينما التى أقامتها وزارة الثقافة المصرية أعوام ١٩٥٥ ، ٥٩ ، و ٦٣ . وسام الدولة للفنون والآداب فى عيد العلم عام ٦٣ . جائزتان ـ كأحسن مخرج مصرى ـ من الجامعة العربية عامى ٦٧ و ٦٨ . جائزة تقديرية من لجنة التحكيم فى مهرجان « كان » عام ٥٤ . جائزة النقاد من مهرجان « كان » عام ٥٦ . وشهادة تقديرية من مهرجان « ميلانو » عام ١٩٥٩ .

ولقد دخلت أفلام صلاح أبوسيف جميع المهرجانات العالمية : برلين ، وسابستيان ، والبندقية ، وموسكو ، وكارلو ڤيڤارى ، ومسابقة جائزة الأوسكار للأفلام الأجنبية عام ١٩٦٧ .

فمن هو صلاح أبوسيف ، قبل أن يدخل تاريخ السينما ؟
ومن هو . . بعد ذلك ؟

●●●

بطاقته الشخصية تقول :

ـ ولد صلاح أبوسيف بتاريخ ١٠ مايو ١٩١٥ فى حارة صغيرة إسمها « حارة قساوات » بحى بولاق بالقاهرة !

وتقول بطاقته الاجتماعية : .

ـ ولد الطفل صلاح أبوسيف بعد شهور من طلاق أمه من أبيه ، الذى كان واحداً من نجوم الإقطاعيين فى صعيد مصر . والذى كان فى نفس الوقت « عمدة » قريته « الحومة » مركز الواسطى . أطيان ، ومنصب ، وأُبَّهة ، وأربع زوجات كلهن من الريف ، عدا واحدة فقط من « البندر » هى « أم صلاح » ولأن أم صلاح هى الزوجة الوحيدة المتعلمة فى طابور زوجات العمدة ، فقد تمردت على واقعها « العبودى » بالانفصال نهائيا . وفى غمرة تلك المشاعر بالتمرد ، كان الحبل السرى فى داخلها ، يرضع الجنين ـ المسمى فيما بعد صلاح ـ فوران الموقف الحاسم الذى أخذته بالرغم من قسوة الظروف التى تنتظرهما ! أرضعته لبن العناد . وقد كان ذلك ـ وللظروف الصعبة التى اجتازتها طفولته ـ أثر كبير فى تكوين شخصية صلاح ، فى الحياة .. وفى الفن !

●●●

بطاقته الفنية تقول :

ـ بدأ صلاح أبوسيف خبراته فى مجال السينما من نقطة الصفر والأهمية.فقبل أن يخرج فيلمه الروائى الأول عام ١٩٤٥ ـ كان قبلها بعشر سنوات ، وخلالها ـ يعمل « مونتيراً » فى استوديو مصر . و « المونتير » بلغة السينما هو « الفنان » الذى يقوم بتنظيم وترتيب لقطات الفيلم ، وتتابعها ، طبقا لشروط معينة فى التسلسل والزمن .

كان عمره إذ ذاك ـ سنة ١٩٣٦ ـ واحداً وعشرين عاما .

إن عملية « توليف » أو « مونتاج » الفيلم التى كان يقوم بمهمتها « صلاح » آنذاك . . تختلف من « مونتير » الى آخر ، تبعا لحساسية وموهبة كل منهم . هناك « مونتير » روائى ، وآخر تعبيرى . الأول يعتمد على أبسط مظاهر « التوليف » المباشر ، متتبعا خط أحداث الراوية طبقا لتسلسل المضمون من وجهتى النظر الدرامية والسيكلوجية . وأما الثانى فيعتمد على « التوليف » التعبيرى ، ذلك الذى يقوم على تركيب اللقطات بطريقة تحدث التأثير المباشر والدقيق نتيجة

لصدمة صورتين كما يقول « مارسيل مارتن » فى كتابه « اللغة السينمائية » .

وكان صلاح أبوسيف من النوع الثانى . فهو مشغول دواما ـ أثناء قيامه بمونتاج فيلم ـ بأن يحدث لدى المتلقى مؤثرات قائمة على القطع ، لا على الربط . . وبهذا يجعل المتفرج فى حالة التحفز الذهنى طول الوقت . ويجعل الموضوع أكثر حيوية بداخله .

« مونتير » تعبيرى ، مضافا اليه مزايا المونتير الروائى . . هذا هو صلاح أبوسيف « المونتير » باستديو مصر ـ قلعة السينما المصرية ـ لمدة عشر سنوات قبل أن يخرج فيلمه الروائى الأول عام ١٩٤٥ .

فماذا عن صلاح أبوسيف قبل عام ١٩٣٦ ، تاريخ التحاقه باستديو مصر ؟

●●●

« الفلاش باك Flash Back فى لغة السينما ، معناه العودة بالحدث إلى الزمن الماضى ، مثلما نعود الآن إلى الوراء . . الى « حاره قساوات » فى بولاق ، حيث ولد الطفل صلاح أبوسيف .

المكان : بيت إرتفاعه ثلاثة أدوار .

الثانى والثالث . . مؤجران .

الدور الأول ، شقتان متقابلتان . فى إحداهما تقيم أم صلاح والطفل صلاح . وفى الشقة المقابلة تقيم جدة صلاح لأمه ، وخاله . ومن قيمة إيجار الدورين الثانى والثالث تعيش الأسرتان . ولولا حكمة الأم ـ أم صلاح ـ فى إنفاق المبلغ الزهيد الذى تستحقه من الايجار ... لما استطاع « صلاح » أن يلتحق بالمدرسة الابتدائية فى نفس الحى . ومع ذلك ، كانت الظروف فيها بعد أقسى مما تحتمل الأم والصبى الصغير فعندما حصل على الشهادة الابتدائية ، لم تقدر على أن تلحقه بالمدرسة الثانوية ـ كما حلمت ـ تمهيدا لإلحاقه بالجامعة . ولكنها ـ أمام الظروف الصعبة ـ ألحقته بإحدى المدارس المتوسطة ، ليصبح بعد ثلاث سنوات موظفا يعول أمه ونفسه !

. . لكن !!

●●●

الفلاش باك . . مرة أخرى :

وهو فى السنة الرابعة الابتدائية ـ وكان يدرس فترتين صباحية ومسائية ـ راق له يوما أن « يزوغ » من فترة المساء . فقد كان الطفل ، ابن العاشرة ، يعيش فى عالمين مغلقين . عالم البيت ، وعالم المدرسة . فى ذلك المساء قرر أن يقضى فترة الدراسة المسائية فى التسكع ، على أن يعود إلى البيت فى موعده المعتاد . وفى تلك

الأمسية ، كان القدر يدبر له لحظة الإرهاص الأولى بمستقبله الحقيقى . إذ كان يمشى فى شارع ابراهيم باشا ـ الجمهورية الآن ـ حين لفت نظره تلك الصور المعلقة على واجهة سينما « إيديال ».راح يتأملها مبهوراً بمايرى . ولأول مرة يقرأ كلمة « سينما » بفضول صبى ، لاحدود لانبهاره.. وساقه الفضول الى قائمة الأسعار المعلقة فى مدخل السينما : بقرش صاغ واحد يستطيع أن يشاهد فيلمين . مامعنى كلمة « فيلمين » هذه ؟ وامتدت يده الصغيرة إلى جيبه ، فأخرج « القرش صاغ » مصروفه لمدة يومين . وبلا تردد إشترى تذكرة الدخول ، واختفى بين أقدام الداخلين !!

لم يكن الفيلمان ناطقين . ولقد كان ذلك أدعى إلى إثارة فضوله ودهشته أكثر . ظل مشدوداً من فضوله ودهشته طول الوقت . وفى تلك الليلة لم ينم . إستعادت عيناه المحملقتان فى سقف الحجرة جميع الصور المتحركه التى شاهدها وفى اليوم التالى ، حدث زملاءه فى السنة الرابعة الابتدائية عن اكتشافه بالأمس . واستطاع فى نفس اليوم أن ينشىء منهم « فريقا ، لتحويش المصروف اليومى » للتمكن من دخول السينما كل أسبوع بصفة منتظمة .

وقد كان !

لكن . . هل تكفى هذه الخطوة ـ مشاهدة الأفلام السينمائية فى سن مبكرة ـ لكى يصبح صلاح أبوسيف ، فيما بعد ، هذا المخرج السينمائى المرموق ؟ !!

●●●

« فى الاستديو ستجد شخصا يجلس صامتا . . لاتقترب منه ، ولا تحاول أن تكلمه ، لأن فى مخه كل الفيلم : هذا هو المخرج » .

إستوقفته هذه العبارة طويلا وهو يقرأ أول كتاب ـ فى حياته ـ بعنوان : « كيف تصبح ممثلا سينمائيا ؟ » . ورافقت له كثيرا شخصية ذلك الجالس الصامت فى الاستديو ، وفى رأسه كل الفيلم . وخايلته الأحلام فى أن يصبح هذا الرجل . لكن . . كيف يدرس الإخراج السينمائى وليس فى مصر ـ وقتذاك ـ معهد أو كلية يتلقى فيها أسرار هذه الصنعة الساحرة ؟

ولأول مرة يخطر على بال صبى صغير فقير فى العاشرة ، أن يسافر الى الخارج . لكن كيف ؟ وهو لم يحصل على الشهادة الابتدائية ، وكأنما الابتدائية ـ أيضا ـ ستفتح أمامه مطارات العالم الى تحقيق حلمه فى بلاد بعيدة !!

●●●

عندما حصل على الشهادة الابتدائية ، أحس أنه يقترب من تحقيق أحلامه فى عالم السينما !! إن فكرة السفر الى الخارج تسيطر عليه . ولكى يحقق هذه

الفكرة ، ينبغى أن يدرس لغة أجنبية دراسة وافية ، تمكنه من الدراسة والتفاهم فى بلاد الفرنجة . هكذا قال لنفسه !

ولأن مدرسة التجارة فى ذلك الوقت ، كانت توفر لطلابها دراسة لغتين أجنبيتين ، فقد التحق بها .. وهى فى نفس الوقت ـ من وجهة نظر أمه ـ تحقق له الوظيفة بعد ثلاث سنوات !

فى مدرسة التجارة تلك . . أجاد اللغتين « الإنجليزية » و « الفرنسية » وبهما استطاع أن يقرأ العديد من المجلات ، والكتب الأجنبية التى تتحدث عن الأفلام وصناعة السينما . أصبح يعى كثيرا من حقائق هذا الفن . إقتربت المسافة بين عقله ، وعالم السينما . حتى أنه وهو فى الرابعة عشرة بدأ يكتب المقالات « العلمية » عن السينما ، ويبعث بها الى الصحف . . وذاع اسم الشاب صلاح أبوسيف فى الأوساط الصحفية والفنية كناقد سينمائى . بينما كانت معلوماته عن السينما تزدادوتتسع . . عرف كل الأشياء المتعلقة بالقصة السينمائية ، والسيناريو ، والديكور ، والماكياج ، والموسيقى التصويرية ، والمونتاج .

ثم . . تخرج صلاح أبوسيف من مدرسة التجارة المتوسطة .

وبدلا من أن يعمل « محاسبا » بإحدى الشركات . . أصبح « محررا فنيا » فى مجلة « الراديو والبعكوكة » الشهيرة فى ذلك الوقت . ولأول مرة يحصل فى نهاية الشهر على أول راتب فى حياته : ثلاثة جنيهات !!

وبالطبع ، لم تستطع الجنيهات الثلاثة أن تفى بضروريات الأسرة ، الأمر الذى اضطره الى أن يبحث عن وظيفة حكومية بمؤهله الدراسى.وانتهى الأمر بتعيينه موظفا فى شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى .

وكان طبيعيا ، حينئذ ، أن تنزوى أحلام السفر ، لدراسة الإخراج السينمائى . . فى الخارج !!

●●●

بعض الفنانين يبدأون طريقهم الحقيقى فى الحياة . . بالمصادفة !

والمصادفة التى شاهد بها صلاح أبوسيف أول فيلم سينمائى فى حياته ، هى نفسها التى أتاحت له أن يلتقى بالمخرج السينمائى ـ وقتذاك ـ نيازى مصطفى !

كان ذلك فى أوائل عام ١٩٣٦ .

فى ذلك العام ، سافر نيازى من القاهرة الى المحلة ، لكى يصور هناك فيلما تسجيليا عن شركات بنك مصر فلما وصل الى إدارة الشركة بالمحلة ، إلتقى أول ماالتقى بالشاب صلاح أبوسيف سكرتير المدير العام . وكانت فرصة لصلاح ، إستعرض خلالها كل معلوماته عن السينما ، الأمر الذى أدهش المخرج السينمائى

نيازى مصطفى . وأمعنت المصادفة فى عطاء نتائجها . . إذ عاد نيازى الى القاهرة ليتحدث عن الشاب صلاح أبوسيف بانبهار وإعجاب وثقة . أكثر من هذا - وقد كان نيازى مصطفى يعمل فى شركة مصر للتمثيل والسينما - إنه أقنع المسئولين ، لكى يلتحق صلاح باستديو مصر . وفى نفس العام ١٩٣٦ ، تم تعيين صلاح أبوسيف مساعداً بقسم المونتاج .

وهكذا وضع قدميه فى ميدان السينما . . كمحترف !!

يتذكر صلاح أبوسيف تلك البداية جيدا .

- كان يعمل معى فى قسم المونتاج وفيقة أبوجبل « وقد أحبها وتزوجها » ، وابراهيم عمارة ، وأحمد جلال ، وكوكا . كنا نقوم بتوليف نسخة الفيلم الإيجابية PosiTive . أما النسخة السلبية Negative ، فقد كان توليفها من اختصاص « مونتيرات » ألمانيات .

ولقد توطدت علاقتى بنيازى مصطفى . عندما يقوم بإخراج فيلم ، فأنا مساعده . وعندما يجلس أمام « الموفيولا » فأنا بجواره . والحديث بيننا لاينتهى عن السينما . . وحرفية الفيلم .

●●●

يتذكر صلاح أبوسيف الأفلام الذى ساعد فى إخراجها .

- أول فيلم كان اسمه « تيتا يونج » ، بطولة أمينة محمد ، والممثل الناشىء حينذاك - حسين صدقى . وفيلم « سلامه فى خير » الذى قام ببطولته نجيب الريحانى . وأفلام أخرى لا أذكرها الآن ، ولكن أهمها على الإطلاق فيلم « العزيمة » الذى أخرجه كمال سليم . كان هذا الفيلم تجربة عظيمة لى ، إذ أننى اشتركت أيضا فى كتابة السيناريو . وقمت بمونتاجه . كما أننى أصبحت صديقا حميما لمخرجه كمال سليم . وقد كان لهذه الصداقة أثر كبير فى بدايتى السينمائية . إذ كان كمال سليم - الذى لم أكن أفارقه لحظة - فنانا كاملا بمعنى الكلمة . كان أديبا ، وموسيقيا ، ورساما ، وشاعرا . ومنه عرفت أشياء كثيرة فى السينما ، وغير السينما . . ومعه قرأت كثيرا . . وحلمت كثيرا .

و . . تحقق حلمى القديم فى السفر الى الخارج !

●●●

فى مايو ١٩٣٩ ، سافر صلاح أبوسيف - مبعوثا من استديو مصر لدراسة المونتاج - إلى باريس !

وفى استديو « كلير » ، راح يتدرب على خبرات الفرنسيين فى المونتاج . لكن تشبثه بدراسة الإخراج ، جعله بعد شهر واحد من بداية البعثة ، يتجه إلى تحقيق حلمه . تلقى دروس الإخراج على يدى المخرج الفرنسى « جورج لاكومب » ، الذى انجذب الى موهبة الطالب المصرى ، وذكائه ، وشدة ملاحظته . وإلى جانب الدراسة العملية ، راح يلتهم ـ بالفرنسية ـ كل الكتب الجديدة عن السينما ويتردد يوميا على « استديو أور سولين » ليشاهد أحدث تجارب الفيلم الفرنسى . وفى هذا الاستديو تعرف على المدرسة التى أحبها ، وهى المدرسة التعبيرية الألمانية ، التى أدخلت الفكر فى السينما .

ثم . . وبعد ستة أشهر من دراسته فى باريس . . قامت الحرب العالمية الثانية ، وامتلأت سماء باريس بغارات الطائرات النازية :

ـ عندئذ علمت أن باخرة مصرية ستبحر من « مرسيليا » عائدة بالمصريين الموجودين فى أوروبا الى مصر . . فغادرت باريس إلى مرسيليا . هناك ظللت أنتظر الباخرة « النيل » لمدة ١٩ يوما . ومعى بالطبع جميع المصريين الذين أتوا من سائر دول أوروبا . وكان من بين العائدين معى الدكتور طه حسين ، والكاتب المعروف أحمد الصاوى محمد .

و . . مرة أخرى ، عدت إلى استديو مصر ، ولكن رئيسا لقسم المونتاج . إرتفع مرتبى مرتين ، من سبعة جنيهات إلى ١٢ جنيها ، ثم الى ستين جنيها . لكنى لم أكن راضيا عن عملى فى المونتاج .
فى عام ١٩٤٥ . . وجدتنى ـ من أجل الإخراج ـ مدفوعاً إلى تقديم استقالتى من استديو مصر . وأمام الاستقالة ، وافق المسئولون فى الاستديو على أن أقوم بإخراج أول فيلم روائى . إذ كنت من قبل قد قمت بإخراج بعض الأفلام التسجيلية القصيرة . وكان فيلمى الأول هذا كمخرج روائى عنوانه « دايما فى قلبى » . وفى هذا الفيلم إكتشفت عماد حمدى الموظف بإدارة الاستديو ، وقدمته ممثلا لبطولة الفيلم مع عقيلة راتب .

●●●

ونحن نطل من فراندة مسكنه فى الدور الثالث بشارع المنتزه بالزمالك . . كان يتهادى على صفحة النيل قارب صيد تحت شعاع القمر . بينما كازينو « الملح والفلفل Salt and pepper على لسان الجزيرة ، تنبعث منه الأضواء الملونة ، والموسيقى الراقصة .

قلت لصلاح أبوسيف ، ونحن مأخوذان بالمشهد على صفحة النيل وشاطئه .

● يمضى الآن على إخراجك أول فيلم روائى سينمائى ٢٨ عاما . . ماهو حصادك من الأفلام التى قمت بإخراجها ؟

قال ، وعيناه على شراع قارب الصيد :

ـ منذ بدايتى . . حرصت ألا أخرج أكثر من فيلم واحد فى العام . . وذلك كى أعطى كل طاقتى وتركيزى ودراساتى للفيلم الذى أقوم بإخراجه .

وعن خطته الدائمة فى العمل :

ـ إنى أختار بنفسى موضوعات وقصص أفلامى . وأنا أفضل عادة القصة المكتوبة خصيصا للسينما . وأنا ممن يشتركون دائما فى كتابة سيناريو الفيلم الذى سأقوم بإخراجه . . فذلك يجعلنى أعيش فى جزئياته الدقيقة معايشة كاملة وهاضمة . كما أننى أدرس أماكن أحداث الفيلم الاجتماعية ، وتقاليدها ، وسلوك شخصياتها ، على الطبيعة . كى أتعرف على البيئة واللهجة التى يتحدثون بها ، وطرق تفكيرهم . ولذا تجدنى أدون دراساتى وملاحظاتى فى كراسة مستقلة ، أستهدى بها فى رسم الشخصيات والأحداث ومواقعها ، وكل مايتعلق بعناصرها .

● ماهو أسلوب صلاح أبوسيف فى توصيل شخصية الدور الى الممثل ؟

ـ إننى أجمع الممثلين . . وأقرأ معهم سيناريو الفيلم . وأجعل كل ممثل يهتدى إلى أبعاد دوره وشخصيته . ثم أتحدث معهم عن كل شخصيات الفيلم ، وتطور هذه الشخصيات طوال الأحداث التى يتناولها الموضوع . وبهذه الطريقة يكتشف كل ممثل دوره ، مستفيدا من رؤيتى الشاملة للعمل ككل . فضلا عن أن هذا الأسلوب ، يعطى الممثل فرصة الخلق ، والاعتماد على قدراته .

●●●

من مجموعة الأفلام التى قدمها صلاح أبوسيف على مدى ٢٨ عاما . . تكتشف دون عناء ، أنك أمام مخرج لديه « مشكلة أساسية » يطرحها للعلاج دائما . مشكلة الظلم الاجتماعى التى يتعرض لها الانسان فى هذا العصر . فهو دائما ـ عند صلاح أبوسيف ـ إنسان فى مهب عواصف وضغوط أقوى منه . داخل كل فيلم من أفلامه الثلاثين ـ أو أكثر قليلا ـ سوف تجد شخصيات مطحونة . بعضها يقاوم الظلم بصلابة وبعضها ينهزم رغما عنه . ورؤيته ـ رؤية المخرج ـ دائما ، هى إدانة الظروف الاجتماعية ، والكشف عن متاعب الإنسان .

وهكذا أختار صلاح أبوسيف منذ البداية ، أن يقف بجانب الإنسان ، وأن يلتزم بقضاياه . . فى كل أعماله الفنية .

فى دائرة المعارف التى نشرتها دار « بورداس » الفرنسية عام ١٩٦٧ . . كتب « روچيه بوسنيو » رئيس تحريرها كلمة جاء فيها : « وفى ميدان الفيلم الروائى الطويل . . أخرج صلاح أبو سيف عددا من أهم الأفلام التى ظهرت فى السينما المصرية الحديثة . . وكثيرا ماتسطع فى أفلامه موهبة السيناريست وملكة الخلق السينمائى . ويبدى صلاح أبوسيف اهتماما كبيرا جدا بالواقعية ونستطيع أن نقول إنه صاحب أسلوب شخصى فى الإخراج » .

●●●

قلت لصلاح أبوسيف :

● ألا تلاحظ أن أفلام مابعد ١٩٦٧ ـ تدور معظمها حول التسلية والترفيه ؟ !

قال :

ـ إن هزيمة ٦٧ كانت مباغتة وعنيفة . . وأسلمت الجماهير العربية إلى الذهول والإحساس بالكآبة ، والترنح . وهذه الأفلام تصبح استجابة نفسية لردود الفعل عند الجماهير . لكنى لا أحبذ استمرارها وحدها دون أن يكون هناك أفلام تعبر عن قضايانا المعاصرة .

● ماهى أبرز عيوب الفيلم العربى كما تراها ؟

ـ أولا . . عدم جدية القائمين به .

ثانيا . . ضعف السيناريو .

ثالثا . . عدم الدقة والإخلاص والإحساس بالمسئولية فى التنفيذ !

●●●

وأنا أصافح صلاح أبوسيف مودعاً . ألقيت نظرة على قارب الصيد فوق صفحة الماء ، وتحت ظلال القمر . . ومع ذلك كنت لا أزال مشغولا بأحلام صلاح أبوسيف . . كل الأحلام الجادة التى راودته وحققها . .

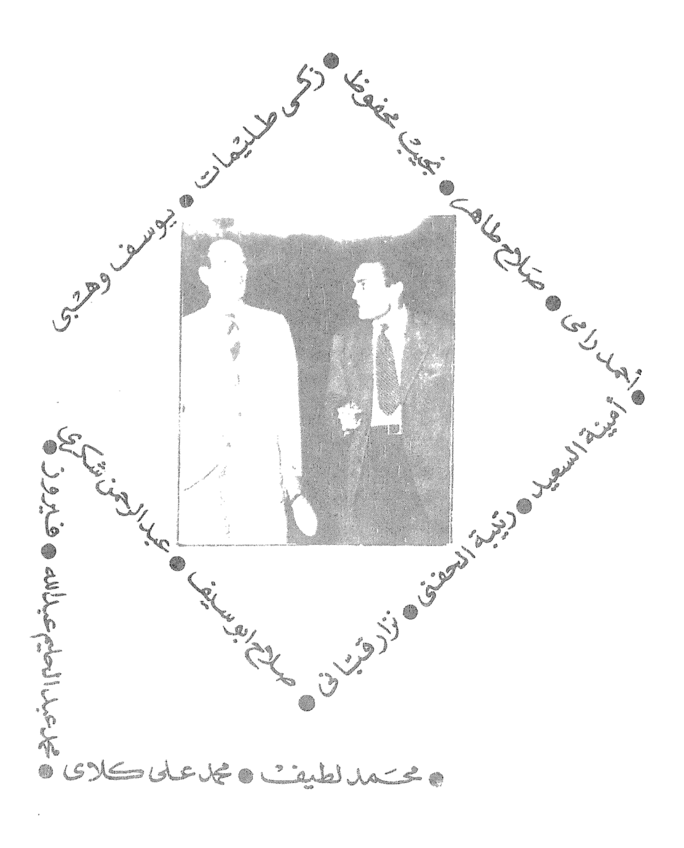
تذكرت أنه أول من دعا إلى إنشاء معهد السينما فى القاهرة ـ وقد تحقق .

وإلى إنشاء معهد السيناريو . . وقد حدث .

وكان أول من دعا إلى إنشاء نقابة السينمائيين . . وقد أنشئت .

ولا تزال الأحلام الشابة من أجل السينما العربية ، تراود رأس المخرج الفنان الذى يعرفه العالم كواحد من أهم مائة سينمائى . . فى العالم !

« مايو ١٩٧٥ »



زكى طليمات • يوسف وهبى
نجيب محفوظ • صلاح طاهر • أحمد رامى • أمينة السعيد • زينب الحفنى • نزار قبانى
عبدالرحمن شكرى • صلاح أبو سيف
فيروز • محمد عبدالحليم عبدالله
محمد لطيف • محمد على كلاى

أحمد رامى

من أين يبدأ الحديث مع أحمد رامى ؟ !
شاب ؟ هذا صحيح
لكنه شاب فى الواحدة والثمانين !!

شباب أحمد رامى الحقيقى .. فى ذلك الطفل الأخضر الذى يطل من روحه !

فى دهشته البكر أمام الأشياء .. كل الأشياء ، وكأنه فى كل مرة ، يراها لأول مرة !

فى ابتسامته الدائمة ، وكأنه وافد إلى الحياة منذ لحظات دون همومها وأحزانها ، وأن الحياة تمنحه ذلك الإحساس المتجدد بالميلاد !

فى قوامه الممشوق كفارس . وخطواته الرشيقة كراقص باليه . وصحته النفسية التى تهزأ من كل ما يفسد علاقة الطفل باللعبة !

وشبابه الحقيقى ، فى « ذاكرته » التى لم تتجعَّد ، وكأن أقدام السنوات الثمانين لم تعبر فوقها ، وإنما الصحيح أنها كانت تمشى بجوارها ! المرآة العاكسة فى ذاكرته ، صافية نقية ، قادرة على استيعاب تلك التفاصيل الكثيرة ، التى تقف وراء أحمد رامى ، فى طابورها الطويل الممتد إلى عام ميلاده : ١٨٩٢ !!

وشبابه الحقيقى كذلك ، فى أن قلبه لايزال طفلا . وهذا الطفل اختار الشعر جناحين يطير بهما فى أجواء أثيرة لديه .. أجواء المحبين .

فى كل قصيدة يولد قلبه ولادة جديدة ..

وجناحاه ينبتان دائما من عالم « أبوللو » ..

أما ساحاته التى بلا حدود .. فهى تلك الينابيع دائمة التفجر بالحنين ، وبالحنان .. وراء الضلوع !

●●●

أحمد رامى الذى أجالسه الآن فى غرفة الصالون بمسكنه ، فى شارع « منية الأصبع » بحدائق القبة .. هو نفسه أحمد رامى الذى عرفته قبل خمسة عشر عاما ـ وخلال عشر سنوات بعدها ـ فى مكتبه بدار الإذاعة المصرية ، بمبنى الشريفين .

هو ، هو ، لم يتغير !

السنوات الأخيرة لم تترك بصماتها على ملامحه ، وروحه ، وعاداته !

السيجارة التي كان يشربها منذ خمسة عشر عاما ، هى نفس السيجارة الرفيعة جدا من ماركة « شهير » التي يدخنها الآن أمامى . إنها سيجارة ـ فقط ـ لخداع عادة التدخين لديه !

الكلمات التي يستقبل بها أصدقاءه ومحبيه . . هى نفس الكلمات . . صادرة من نفس المنبع . . قادرة على التسلل إلى صدور القادمين ، بمشاعر الألفة ، والمودة ، والترحيب !

فى غرفة الجلوس الرحبة ، ذات الجدران العالية ، والضوء الهادىء . . تحس أنك فى حضرة السكون . وأن السكون فى حضرة الشاعر . حتى الزقزقات الصادرة عن العصافير فوق الأشجار فى حديقة البيت . . هى الأخرى تعطى إحساسا بالمطلق المكانى . العصافير . . والسكون الشفيف . . كلها مشتقات من مزاج الشاعر . . وهو مزاجه الدائم . . لأنه فى كل الأوقات يكون على موعد مع الشعر . . يكتبه ، أو يقرأه .

وحذار أن تسأل أحمد رامى عن القصيدة التي يكتبها ! فلن تظفر أذناك بشىء منها . فهو يعتبر قصائده ـ وكلها فى الحب ـ علاقة عاطفية . . لها قدسيتها . . والحديث عنها يفسد الخصوصية بينهما . قصائده تظل سرا حتى تعلن عن نفسها بواسطة النشر ! أما إذا كانت « أغنية » يعدها لأم كلثوم . . فليس من حقه ، ولا من حق هذه الأغنية أن تعلن عن نفسها ! أم كلثوم فقط هى التي تحدد موعد الكشف عن وجه هذه الأغنية ، وبالطريقة التي تلهب فضول المستمع ، وتجعله مشدوداً إلى لحظة ميلادها المتكامل ، تأليفا ، وتلحينا ، وغناءً . . وجمهورًا أيضا !

●●●

أم كلثوم هى الحقيقة المقدسة فى حياة رامى ، وإن لم تكن الوحيدة ! هناك زوجته ، وأبناؤه محمد ، وتوحيد ، وإلهام . وهناك شعره . وهناك صديقه الروحى عمر الخيام . ولكن تبقى أم كلثوم حقيقته الخاصة . إن أم كلثوم ليست ـ فقط ـ البنوره السحرية التي يطل منها على آذان الملايين . وليست ـ فحسب ـ هذه الحنجرة الساحرة التي تعبر منها كلماته ، ومعانيه ، وصوره الشعرية ، وقد اكتسبت عنصر الخلود ، وإنما لأن أم كلثوم ـ كذلك ـ هى السر الذى يجعله دائما على موعد مع الشعر لأنه أيضا يكون على موعد معها . . ومع الملايين !

والحقيقة المقدسة فى حياة رامى . . عمرها خمسون عاما !!

●●●

٢٤ يوليو ١٩٢٤ : تاريخ اللقاء الأول ـ وجها لوجه ـ بين أم كلثوم ، ورامى .

وسوف نطوى الزمن إلى الوراء عامين قبل ذلك التاريخ .. لنشهد أحمد رامى أمين مكتبة دار المعلمين العليا ـ نفس الدار التى تخرج منها عام ١٩١٤ ـ فى طريقه إلى جامعة السوربون بفرنسا . كان موفداً من دار الكتب المصرية لدراسة فنون المكتبات ، وإحدى اللغات الشرقية .

قبل أن يحمل رامى حقيبته إلى باريس .. كان فى وداعه صديقه الملحن الشيخ أبو العلا محمد . وبينما هو يصافح صديقه مودعا ، كانت يده فى جيبه ، فلما أخرجها .. خرجت معها قصاصة من الورق تحمل أحدث قصائده :

الصَّبُّ تفضَحُهُ عيونه
وتنم عن وجد شئونه
إنا تكتمنا الهوى
والداء أقتله دفينه
يهتاجنا نوح الحمام
وكم يحركنا أنينه

ولأن رامى كان فى عجلة من أمره .. فقد استقرت القصاصة فى يد الشيخ أبو العلا أثناء المصافحة .. وافترقا !

فى باريس .. كان رامى غارقا فى دراسة المكتبات بالسوربون .. وفى دراسة اللغة الفارسية فى مدرسة اللغات الشرقية . وأسلمته دراسة الفارسية إلى غرق آخر مع « الخيام » فى رباعياته . كان فى كل يوم يخصص وقتا لترجمة « رباعية » واحدة من الرباعيات شعرا . لم يكن يترجمها حسب تسلسلها ، وإنما حسب استجابة الرباعية للترجمة .

فى ذلك اليوم الذى وصلته فيه « رسالة » من أحد أصدقائه فى القاهرة .. كان رامى يدندن بالرباعية التى انتهى من ترجمتها :

إن تفصل القطرة من بحرها
ففى مداه منتهى أمرها
تقاربت يارب ما بيننا
مسافة البعد على قدرها

أى فضول يدفعه الآن إلى أن يفض « الرسالة » القادمة من القاهرة ! ولكن متعته بالغناء ، وباستواء الترجمة الشعرية للرباعية .. كانت أقوى لديه من الفضول !

وفى زحمة الهموم الدراسية ، والترجمة ، سقطت الرسالة القادمة من القاهرة . . سقطت من ذاكرته . ظلت داخل مجال النسيان ، دون أن تفض ، . . إلى أن انتهى من دراسته بعد عامين . وبينما هو يعد حقائبه ، وأوراقه ، ومذكراته ، استعدادا للعودة . . وثبت الرسالة إلى عينيه من جديد . . وبغريزة الحنين الجارف إلى عطر الوطن . . انقضت أصابعه على الرسالة تفتحها ، ليقرأ فيها سطورا تقول إن مطربة جديدة وفدت إلى القاهرة من السنبلاوين إسمها « أم كلثوم » تغنى من تلحين الشيخ أبو العلا محمد قصيدته إياها . القصيدة التى خرجت من جيبه لتستقر فى يد صديقه ، وهو يصافحه مودعا إلى باريس - وأن أم كلثوم هذه معجزة فى الغناء !

فى هذه اللحظة . . تمنى رامى أن يغمض عينيه ، ثم يفتحهما ، فيجد نفسه فى القاهرة !!

●●●

٢٤ يوليو ١٩٢٤ : تاريخ اللقاء الأول - وجها لوجه - بين أم كلثوم ، ورامى .

المكان : صالة « سانتى » بحديقة الأزبكية

والمناسبة : حفل غنائى تقدمه « الآنسة أم كلثوم » .

أحمد رامى الموظف بدار الكتب المصرية ، كان أول الجالسين فى الصالة . كان مستعدا لأن يدفع عمره ثمنا للدخول . ومع ذلك كانت « التذكرة » بخمسة قروش !!

وبكل براءة الطفل الكامن فى أعماق رامى - ٣٢ سنة وقتذاك - انتفض واقفا ، عندما ظهرت أم كلثوم على خشبة المسرح . دون أن يقدم لها نفسه ، طلب منها أن تغنى قصيدته . وعلى الفور . . . أدركت أم كلثوم أنه رامى . . فحيّته . . ثم بدأت وصلتها الغنائية :

الصب تفضحه عيونه

وتنم عن وجد شئونه

●●●

يستعذب رامى أن يستعيد أحاسيس اللقاء الأول بأم كلثوم :

« إذا كان الصوت السابح فى الأثير يستحيل إلى مخمل . . والموسيقى إلى أذرع منظورة تحمل هذا المخمل . . فقد وجدتنى فى عالم آخر . . مكانه فى المطلق . صوتها جعلنى فى مساحة الكون قطبا يدور فى مجال لا أعرف مداه . وأحسست لقصيدتى مذاقا جديدا . . مذاق السحر ! »

ومن ذلك التاريخ .. أصبح أحمد رامى وجها ثابتا فى كل حفلات أم كلثوم !

لم تكن أم كلثوم قد استقرت فى القاهرة بعد . كانت تأتى من قريتها « طماى الزهايرة » لتغنى فى القاهرة ، ثم تعود إلى قريتها ومن قريتها إلى حفلات أخرى فى مدن أخرى . وفى كل هذه الحفلات .. إعتادت أم كلثوم أن تتوقع وجود رامى ، فى مقدمة الجمهور !

تحول رامى الشاعر إلى عاشق لصوت أم كلثوم ، ومن وحى هذا العشق .. كتب أولى قصائده فى أم كلثوم .

صوتك هاج الشجو فى مسمعى
وأرسل المكنون من أدمعى
فيه صبابتى .. وفيه الضنى
يشكو تباريح فؤادى معى
كأنما لفظك فى شدوه
منحدر من دمعىَ الطيِّع

●●●

اكتوبر من عام ١٩٢٤ :

أحمد رامى ، المشتعل بكل وقود الإعجاب بأم كلثوم .. يلتقى بها للمرة الثانية ، وعندما أجهش فى أذنيها قصيدة الإعجاب .. لم يكن فى حسابه تلك المفاجأة التى باغتته بها أم كلثوم . فقد طلبت منه أن يكتب لها قصيدة باللهجة العامية !

ويقول لى أحمد رامى :

« لم أكن من قبل قد نظمت شعرا بالعامية . الفصحى هى لغتى ، والشعر بها هو عالمى . هل أكتب « الزجل » بعد أن صدر لى ثلاثة دواوين من الشعر ، ونشرت على الناس ترجمتى لرباعيات الخيام .. شعرا ؟ لايمكن ! »

ولم تيأس أم كلثوم من الرفض لأول وهلة !

كانت تعتقد أن الشاعر عندما ينظم بالعامية ، فإنه سيقدم شيئا مختلفا . شيئا فوق المستوى الشائع . وكانت فى نفس الوقت تريد أن ترتفع بأذواق الجماهير التى بدأت تتعلق بها .

ومن هذا المنطق .. إقتنع أحمد رامى .

ومن هذا المنطلق .. كتب لها أولى أغنياته بالعامية :

خايف يكون حبك ليه شفقه عليّهْ
وانتى اللى فى الدنيا ليّه ضىْ عنيّهْ

وبهذه الأغنية . . بدأت رحلة رامى مع أم كلثوم . وحصادها حتى كتابة هذه السطور ٢٥٠ أغنية . ليست كلها بالعامية . وليست كلها شعرا . لكنها مزيج من العامية والشعر .

●●●

تقول أم كلثوم :

« كان أحمد رامى فى كل مرة يزورنى فيها ، يقدم لى ديوانا من الشعر . وبفضله أصبحت أتذوق الشعر وأتفهم معانيه . كما تعلمت منه موازين الشعر ، حتى أصبحت أكتشف البيت المكسور وحدى » .

ويقول لى أحمد رامى :

« طوال عملى بدار الكتب المصرية . . كنت أستعير كل دواوين الشعر العربى القديم ، لتقرأها أم كلثوم . . وكنت أناقشها فى كل ديوان تقرأه . . إلى جانب الكتب الأخرى »

●●●

فلما غنت أم كلثوم « رباعيات الخيام » إستيقظت ذكريات أحمد رامى فى باريس . الرسالة التى جاءته من القاهرة . الرباعية التى كان يتغنى بها . الحنين إلى أرض الوطن . الحافز وراء ترجمته رباعيات الخيام ، المعاناة التى عاناها من أجل أن يكون أول شاعر عربى يترجم الرباعيات من الفارسية رأسا ، إلى العربية شعرا . الخيام يسيطر على ربيعه الثلاثين فى ذلك الوقت فى باريس :

ما مضى فات . . والمؤمل غيب
ولك الساعة التى أنت فيها

هذا المعنى فى إحدى رباعيات الخيام . . ربما كان مفتاح العلاقة الحميمة التى نشأت بين رامى ، والخيام . لقد قرأ رامى كل الترجمات الركيكة التى نقلت عن الرباعيات . . كان يحس بشاعريته ، أن روح الفيلسوف فى شعر الخيام ، لم تتحقق فى هذه الترجمات !

ولعله اختار دراسة الفارسية بالذات ، ليستطيع الكشف عن أسرار الخيام . فلما وقعت فى يد رامى نسخة من الرباعيات ـ وهو فى باريس ـ باللغة الفارسية . . حاول أن يفك رموزها على ضوء ما درسه فى اللغة . وقاده الكشف إلى مزيد من التعرف على الخيام ورباعياته ، راح يراجع النسخ الخطية فى دار الكتب الأهلية بباريس . وسافر الى برلين ليراجع النسخ الخطية المحفوظة فى مكتبتها . وسافر إلى

لندن ، فقرأ مخطوطات المتحف البريطانى والكتب التى تناولت الخيام . ومنها إلى كمبردج حيث مخطوطات جامعتها . وهناك التقى بالأستاذ « براون » الذى تخصص فى دراسة الآداب الفرنسية ، ليرجع إليه فى ما يتصل بعمر الخيام ورباعياته . ثم عاد إلى باريس مقررا أن يعطى لترجمة الرباعيات وقتا منظما . فما كاد أن يبدأ خطته فى الترجمة ، حتى جاءه من مصر خبر ينعى أخاه . واعتصره الحزن حتى شفّت روحه المعذبة فى الغربة بكل الأحزان التى امتلأ بها فرقا لفراق أخيه ، إندفع الى الرباعيات يغرق أشجانه فى عمق الأحزان الهائلة التى يفيض بها الخيام . وتعانقت آلامه مع آلام الخيام :

« لقد استمددت من حزنى على أخى قوة على تصوير آلام الخيام . وظهر لعينى بطلان الحياة التى ينعاها فى رباعياته . فحسبتنى وأنا أترجمها ، أننى أنظم رباعيات جديدة ، أودعها كل أحزانى على الشقيق الذى رحل فى ميعة الشباب » .

●●●

مامضى فات . . والمؤمل غيب
ولك الساعة التى أنت فيها .

والساعة التى يلقى رامى نفسه فى أعماقها . . هى الساعة التى يحياها . . هى ساعة مع الشعر . . والساعة تأتى وراء الساعة . . والشعر يأتى وراء الشعر .

ويظل رامى محتفظا بروح الطفل فى داخله . . الطفل الذى اختار الشعر جناحين يطير بهما فى عالم أثير لديه ، دائم التجدد . . عالم المحبين . . الينابيع دائمة التفجر بالحنين ، وبالحنان ، وراء الضلوع !

● أنت شاعر محب للحياة . . ماهى الشوائب الذى تخدش لديك هذا الحب ؟

ـ لا شىء يخدش حبى للحياة . فأنا مؤمن بالله . والحياة لدىَّ محبوبة بكل ما فيها من الخير والشر ، والسعادة والحزن . بل هى محبوبة لأنها كذلك . فالسعادة المطلقة مملة . . والحزن المطلق ممل !

● ما الذى يحزنك عادة ؟

ـ الإحساس بأن الحياة بدأت تتسرب من بين يدىّ .

● لكنك فى صحة جيدة . والابتسامة لاتفارقك ؟

ـ فى مثل هذه السن التى أنا فيها . . يستيقظ بداخلنا شعور بالانتظار . نحن نقف فى محطة القطار الأخيرة الى رحلة بعيدة . . طال الانتظار أم قصر . لكن المؤكد أن القطار قادم . فلماذا لا نحتفظ بابتسامتنا إلى آخر العمر ؟ !

● هل تعجبك أغنيات هذه الأيام ؟

ـ كل مؤلفى الأغانى . . أبنائى . نشأتهم كانت على يدىّ ، عندما كنتُ مستشارا للغناء فى الإذاعة . إننى أحبهم جميعهم . وأحب أغنياتهم ، متى كانت مستقيمة الوزن ، وتهدف إلى معنى جديد ، وغرض شريف .

● والشعراء الجدد ـ باعتبارك شاعرا عموديا ـ هل يروق لك شعرهم الحديث ؟

ـ عندما أقرأ قصائد الشعراء الجدد . . أتمنى لو أعود إلى عمر الشباب فى زمنهم ، وأضع نفسى فى التجربة الشعرية تمنى العودة إلى مرحلة الشباب يسعدنى . ويسعدنى أننى سأوضع فى نفس العصر الشعرى للشباب .

● أنت تتعاطف إذن مع تجارب الشعر الجديد ؟

ـ أنا أتعاطف مع الشبان ، ومع كل تجاربهم . فلكل جيل تجاربه ، وأشكاله ، ولغته الفنية التى يختارها ليعبر بها عن نفسه .

● ما رأيك فى موقف بعض الشعراء القدامى ـ وهو يختلف مع موقفك ـ من الشعر الجديد ؟

ـ رأيى أنهم على حق . . وأنا على حق .

● وهل كنت على حق ، عندما طغى أحمد رامى مؤلف الأغانى . . على أحمد رامى الشاعر الغنائى ؟ !

ـ حقيقة . . تأليف الأغانى جنى علىّ كشاعر . لكن من هو « الشاعر » الذى يستطيع أن يقاوم عبقرية صوت أم كلثوم ، فلا يكتب له أغنيات ؟ !! أنا شخصيا لم أستطع . ومع ذلك . . فعزائى أن أم كلثوم تتغنى بأغنياتى وقصائدى أيضا . ولى من الشعر ستة دواوين . كل ديوان منها عنوانه : ديوان رامى .

● من هو الشاعر الذى تأثرت به فى بداياتك الشعرية ؟

ـ لا أحد . أنا لى « ماركتى » الخاصة .

● والشاعر الذى تفضله على الآخرين ؟

ـ الشريف الرضى . إنه سيد الشعراء فى نظرى .

● والشاعر الذى بارك خطاك الأولى فى الشعر ؟

ـ أحمد شوقى ، بعد أن قرأ الجزء الأول من ديوانى .

. . وأخيرا :

● من هو الملحن الذى تطمئن على أغانيك وهى بين يديه ؟

ـ الفنان العظيم رياض السنباطى . . وسيد مكاوى .



• زكى طليمات • يوسف وهبى
• نجيب محفوظ • صلاح طاهر • أحمد رامى
• أمينة السعيد • رتيبة الحفنى • نزار قبانى •
صلاح أبو سيف • عبد الرحمن شكرى
• فيروز • محمد عبد الحليم عبد الله
• محمد لطيف • محمد على كلاى •

أمينة السعيد

عندما نرسو على الشاطىء . . تصبح صراعاتنا مع الموج ذكريات حياة ! العواصف ، والأنواء ، وأسماك القرش . . كلها تبدو متضائلة عندما نثقبها بعيون شجاعة ، ونعبرها بأشرعة الإصرار . . ثم نمضى الى قمة الرحلة.هناك . . يصبح الغرق عطرا . . وتصبح الاحلام التى تَهدّدها الغرق ، دائرة ضوء ، تغمر وجه الانسان !

إن الضوء لايسقط علينا من خارجنا . . إنه ينبع من داخلنا !

والعظيم من يدرك هذه الحقيقة . حقيقة أن يصبح لزاما على الأحلام ألا تقيم أعشاشها فى سقوف الذهن وحده . وإنما يتحتم عليها الا تكف عن التحليق بجناحين : الإصرار . . والإرادة .

طافت برأسى هذه الخواطر ، وانا أصافح السيدة أمينة السعيد ، أشهر كاتبة صحفية عربية على المسافة كلها بين المحيط .. والخليج !

ما أبهج أن تمتلىء بعد الخمسين ، بالمذاق العذب لمعنى أنك قطعت على ظهر الأرض رحلة جادة ، وذات معنى . عندئذ تصبح الأيام القادمة فى متناول الحلم . ويكبر فى قلوبنا الايمان بالانسان ، وهو يكتشف طاقاته الحقيقية من أجل ان يكون شمعة على الطريق . . ومن أجل أن تصبح الحياة أجمل . . وأحلى !

●●●

لم تجهد أمينة السعيد ذاكرتها فى العثور على البداية . . بداية الحديث لا لأن مهنة الصحافة أعطتها خبرة المواقف العديدة التى تجعل من الذاكرة نبعا من الذكريات لايجف . وانما لأن البداية التى انطلقت منها الى الحياة ، كانت هى نفسها ذات دلالات خاصة . وتملك عنصر الحدث ، والشمول ، والتشويق .

الحديث عن طفولة « أمينة السعيد » ينقلك فورا الى وجه « مصر » فى فترة من أخصب فترات النضال فى تاريخها الحديث .

كان « الأب » . . الدكتور أحمد السعيد واحدا من شباب الخطباء فى ثورة ١٩١٩ .

وكان بيته ملتقى الكثيرين من قادة الثورة وشبابها . كان الجميع يحلمون لمصر بعض أحلامهم فيه ، ويرسمون الخطط لتحويل الأحلام الى حقائق .

فى هذا البيت « المصرى » فى مدينة أسيوط بصعيد مصر . . ولدت الطفلة « أمينة السعيد » .

وبعينى طفولتها شاهدت وجه الاب ، وهو يتحدث مع رفاقه بملامح جادة وصارمة . ربما بعض هذه الملامح ، أو كلها هى التى ينطبع بها وجه أمينة السعيد دائما . ففى كل المرات التى شاهدتها فيها كانت فى حالة عمل . عيناها على الأوراق . أو صوتها فى نقاش حول العمل . لكن تبقى ابتسامتها فى الاوقات المناسبة ، عندما تستقبل زميلا ، أو زائرا ، أو تتذكر مشهدا يستدعى الابتسام .

وعندما تتحدث أمينة السعيد ، سوف تلمس من نبرات صوتها انها ذات جهاز عصبى حساس . فهى تعبر عن معانى كلماتها بالتلوين الصوتى من طبقة « القرار » . وليس ذلك ـ فقط ـ لأنها عشقت المسرح فى صباها ، واستجابت الى هواية التمثيل ، فلعبت عددا من الادوار على خشبة المسرح وخلف ميكرفون الاذاعة . لكن السيجارة التى لاتفارق أصبعيها كل الوقت ، تشير الى حساسية الجهاز العصبى لديها . فضلا عن هذه الإجهاشة التى تكمن فى صوتها !

وهكذا لاتملك الا ان تنصت للمتحدثة أمينة السعيد . وهذا هو السر ايضا فى أن مشاهدى التليفزيون ، ومستمعى الراديو . . ينجذبون الى وجهها وصوتها . فهى تنفعل بما يلائم الحديث . وتضع معانى الكلمات فى المنطقة الصوتية المناسبة .

والذين يقرأون لأمينة السعيد . . يحسون ان جهازها العصبى اثناء الكتابة ، يكون فى قمة حساسيته وحيويته . ومن هنا تصل كلماتها الى القلب مباشرة ، لأنها تكتب عن صدق ، وايمان بما تقول .

وأتساءل :

● هل هذه مكونات . . أم مكتسبات ؟

وتجيبنى أمينة السعيد :

ـ الأسرة هى الأساس الأول فى عالم الطفل . هى التى تمنحه المكونات عن طريق الوراثة . وهى التى تعطيه المكتسبات بواسطة السلوك المتبادل بينها وبينه . . عن طريق التربية .

●●●

حين كانت أمينة السعيد طفلة فى العام الخامس من عمرها . . كانت « الفتاة » فى مصر تكاد ان تكون محرومة من التعليم !

كان المحتل البريطانى يحاول إخضاع السياسة التعليمية فى مصر للتأثيرات الإنجليزية . وكان فى خطة « كرومر » و « دانلوب » أن يعرقلا تقدم التعليم « الوطنى » فى مصر . وجزء من هذه الخطة أن « مدارس البنات الابتدائية والثانوية » يجب ان تهدف كمثيلاتها من مدارس البنات فى انجلترا الى هدفين :

● إعداد التلميذات لأن يكن زوجات وأمهات .

● تزويد البعض منهن بالوسائل التى تؤهلهن لتلقى الدراسات الراقية ، التى تعدهن الى ممارسة المهن النسوية . . كالتدريس .

وكان هذا النوع من المدارس لايغرى طائفة كبيرة من الآباء المصريين لكى يرسلوا بناتهم الى مدارس الحكومة . فإن مهمة تعليم البنت « كيف تصبح زوجة وأما » هى فى المقام الأول مهمة البيت والأسرة . خاصة وأن الآباء كانوا ينتظرون أن تتزوج بناتهم فى سن مبكر .

وهكذا ، ولا داعى - كذلك - لتعليمهن فى مدارس الاعداد للتدريس اذ كيف تصبح البنت زوجة وأما . . ومدرسة فى نفس الوقت ؟!

فى ذلك الوقت . . كانت نسبة من يعرفن القراءة والكتابة من الاناث ١٨ فى الألف من مجموع سكان مصر ، حيث كان عددهم ١٤,٥ مليون .

وهكذا شغل « الاب » الدكتور احمد السعيد بمستقبل بناته الثلاث :

● كريمة السعيد : أول وكيل وزارة « التربية والتعليم » . . والأمين العام للتنظيم النسائى بالاتحاد الاشتراكى .

● عزيزة السعيد : خريجة جامعات لندن . وعملت بعض الوقت اخصائية نفسية برياض الاطفال .

أمينة السعيد : الكاتبة المعروفة ، ورئيسة تحرير مجلة « حواء » أشهر مجلة نسائية أسبوعية فى العالم العربى .

ولم تكن الأسرة قد استقبلت - بعد - طفليها القادمين :

● عظيمة السعيد : طبيبة العيون .

● مصطفى السعيد : المهندس الزراعى ، واحد كبار رجال الاعمال .

من داخل عالمها الطفولى . . تلتقط أمينة السعيد هذا الموقف .

« عندما عرف أبى ان احدى مدارس تعليم البنات أنشئت حديثا فى القاهرة . . قرر ان يشد رحال الاسرة من أسيوط الى القاهرة . . مضحيا بعيادته التى كانت مركزا ، وملاذا ، وموردا » .

وهكذا تلقت أمينه السعيد فى طفولتها أولى معانى الأبوة والأمومة . . معا .

وهذه إحدى المكتسبات .

تتذكر أمينة السعيد ملامح عام ١٩٢٣ .

فى ذلك العام - عندما جاءت الأسرة من أسيوط الى القاهرة - صدر اول دستور لمصر . . وأنشىء اول مجلس برلمانى أيضا.بعد عامين فى « مدرسة الحلمية الجديدة للبنات » . . إلتحقت أمينة السعيد « بمدرسة « شبرا الثانوية ». فلما

حصلت على الكفاءة والبكالوريا بعد خمس سنوات . . إلتحقت بكلية الآداب قسم اللغة الانجليزية ، ومعها درست الفرنسية ، واللاتينية ، والألمانية .

لكن أمينة السعيد كانت تتمنى ان تلتحق بكلية التجارة !

لماذا ؟ هى نفسها ـ حتى الآن ـ لاتعرف !!

قال لها أبوها وهى تبدى رغبتها فى الالتحاق بكلية التجارة .

ـ أنت لاتصلحين للأرقام . مستقبلك مع الكلمات ، والجمل ، والمعانى ، واللغة .

« ولأن أبى كان محبوبا منا . . بقدر ما كان مثلنا الأعلى ، فقد أخذت برأيه ، وتخرجت من كلية الآداب عام ١٩٣٥ »

●●●

عندما أعلن « الملك لير » أنه قرر تقسيم مملكته بين بناته الثلاث . . طلب من كل منهن أن تعبر عن مقدار حبها لأبيها .

وعندما سألت أمينة السعيد عن مدى حبها لهذا الأب الذى كان يحلم لها ولأخواتها بمستقبل مرموق ، سمعت منها ما يشبه المعانى التى قالتها « جونريل » الإبنة الكبرى للملك لير ، وهى تقول له :

لقد أحببتك أكثر مما تتحمل الألفاظ .. حبا أعز من العين والحرية اثمن من كل نادر ونفيس.لايقل عن الحياة والحس والشرف . اشد مما يحب ولد أباه . أو يلقى الأب من ولده حبا يعجز الكلام عنه . أحبك فوق هذا كله » .

●●●

عندما تخرجت امينة السعيد من الجامعة . . أوشك تيار التمثيل أن يجرفها الى عالمه . كانت اول الامر تعبرعن حبها للمسرح بترجمة فصول من روائع النصوص المسرحية . . خاصة أعمال شكسبير ، وبرناردشو .

لكن تيار التمثيل كاد أن يجرفها ، لسبب آخر يتصل بموقفها الوطنى المبكر ، عام ٣٥ . ففى ذلك الوقت ، كانت اللغة العربية ـ إزاء الفرنسية والإنجليزية ـ لغة من الدرجة الثالثة . إذ كانت مصر وقتها هدفا للصراع الأنجلو ـ فرنسى وكان التنافس بينهما لنشر نفوذهما الفكرى فى الشرق العربى ، طريقه الترويج للغة كل منهما .

وهكذا خفت صوت اللغة العربية أمام ضجيج الصراع . . أو تهدد !!

وهكذا أيضا ـ وفى خضم القضايا التى شغلت هدى شعراوى زعيمة الحركة النسائية فى مصر وقتذاك ـ لمحت هدى شعراوى ذلك الخطر المحدق بلغة البلاد . . وعلى الفور ، راحت تعمل من أجل ابتكار وسائل لحماية « اللغة »

وتعميقها . إحدى هذه الوسائل ، كانت مسرحا خاصا ـ أقامته هدى شعراوى ـ تقدم عليه المسرحيات باللغة العربية الفصحى . وكان من بين الممثلين على ذلك المسرح الفتاة أمينة السعيد المتخرجة حديثا من الجامعة . اذ كانت ـ فضلا عن نشأتها فى بيت وطنى ـ ممن تأثرن بالأفكار التى تنادى بها هدى شعراوى .

وكانت استجابة « أمينة » للتمثيل بمثابة موقف وطنى تعبر به عن حبها لمصر .

وتتذكر أمينة السعيد بعض ذكريات التمثيل وراء ميكرفون الإذاعة :

كانت تقوم بدور « كليوباترا » فى مسرحية احمد شوقى . وكان يقوم أمامها بدور « أنطونيو » محمد فتحى كبير المذيعين ، وكروان الإذاعة فى ذلك الوقت .

تضحك أمينة السعيد وهى تقول »

« كل منا وقف فى استديو خاص به ، حتى لايشهد أى منا الآخر ، ونحن نتبادل المناجاة على لسانى بطلى المسرحية . لم تكن التقاليد تسمح ! » .

وتضحك .

كانت هدى شعراوى فى كل عام ، تقوم بتكريم جريدتى « الأهرام » و « البلاغ » لموقفها الوطنى . وكانت أمينة السعيد طالبة بالمرحلة الثانوية حين اشتركت بالتمثيل لأول مرة فى حفل التكريم . قامت على المسرح بدور « جريدة البلاغ » أمام « جريدة الأهرام » الذى قامت به الطالبة سعاد صبرى إبنة شقيقة الزعيم مصطفى كامل .

. . لكن . . هل كان التمثيل موهبتها الأولى ؟



عندما تسافر أمينة السعيد ـ وقد أصبحت كاتبة صحفية ـ إلى أوربا فى الصيف . فإنها تدخر من احتياجاتها الضرورية ، لتشاهد العروض المسرحية . فالمسرح هو عالمها الرحيب ، لانها تشهد على خشبته الحياة فى صورها الإنسانية المتفجرة بالحياة . غير أن التمثيل لم يكن موهبتها الأولى !

وهى طالبة فى المرحلة الابتدائية . . كانت لاتتحدث كثيرا . . بل كانت تكتفى بأن تنفعل ، وتصمت !

لكنها ـ ذات مرة ـ قررت أن تنفعل بواسطة القلم . وهكذا راحت تدفق إنفعالاتها فى عروق الحروف ، والكلمات ، والعبارات ، والصفحات . فهى ـ كما قلت ـ تملك جهازا عصبيا على درجة عالية من الحساسية .

. . وفى المرحلة الثانوية ، أرسلت أولى مقالاتها عن طريق البريد إلى مجلة « العروسة » الأدبية . فلما نشر المقال ، أدركت أمينة السعيد الطالبة بالقسم الثانوى ، أنها لاتكتب عبثا . فلما التحقت بالجامعة . . كانت أولى الذاهبات الى

جريدة « كوكب الشرق » إثر إعلان يطلب فتاة تتولى تحرير « باب المرأة » بدون أجر !

من هنا بدأت رحلة المتاعب .. وبالمجان !!

لكنها ، بعد شهور قليلة فى « كوكب المشرق » إنتقلت الى مجلة « آخر ساعة » بطلب من صاحبها ومؤسسها الكاتب « محمد التابعى » . كان التابعى قد وقع فى خلاف مع شريكته « روزاليوسف » حول مجلتهما « روزاليوسف » ، فانفصل عنها كشريك ، وبدأ فى نفس الوقت يعد لإصدار مجلته « آخر ساعة » . فى ذلك الحين إلتحق بالعمل لدى التابعى فى « آخر ساعة » : على أمين ، وشقيقه مصطفى أمين ، إلى جانب أمينة السعيد . وكانوا جميعا ، لايزالون طلابا فى الجامعة .

●●●

كانت الكتابة إذن فى بؤرة الاهتمام لدى أمينة السعيد . فالبيت الذى شارك فى ولادة ثورة ١٩١٩ . والأب الذى طالما شاهدته ، بينما جنود الاحتلال والسلطة يقبضون عليه ، ويعتقلونه ، ويغيب عن البيت بين الحين والحين ، فترات تطول أو تقصر . والام التى واجهت تبعات الموقف الوطنى فى بيتها سعيدة ومؤازرة ، وراضية بكل النتائج المترتبة ، والتى كثيرا ماكانت تهز أركان البيت من جذوره . و .. هدى شعراوى بكل مايحمل صوتها من نبرات الصدق ، والاخلاص ، والحضور فى وجدان الفتيات ، وغير الفتيات . ثم .. القراءات العديدة لعدد من أمهات الكتب فى الأدب ، والشعر ، والسياسة ، والاجتماع ..

كل ذلك ـ الى جانب الاستعداد الفطرى لديها ـ كان مقدمات منطقية إلى نتيجة منطقية واحدة . هى أن تصبح هذه الفتاة فى يوم ما ، صناعتها القلم !

●●●

العام ١٩٣٤ ، ولم يبق على تخرجها فى الجامعة غير عام واحد .

فى ذلك العام .. عرضت عليها « دار الهلال » أن تعمل بمجلة «المصور » فلم تتردد .. شىء ما فى « دار الهلال » كان يجذبها اليها . ربما اكتشفت فيها بعد ، أن « دار الهلال » هى أنسب الدور الصحفية الى وقارها المبكر .

وهكذا تركت « آخر ساعة » ، إلى مجلة « المصور » براتب شهرى قدره أربعة جنيهات ، زيدت الى ستة جنيهات بعد شهور ، تقديرا لجهود الصحفية الشابة !

لكن الصحفية الشابة أمينة السعيد حين أصبحت على أبواب امتحانات « الليسانس » ، إنقطعت عن الصحافة تماما .. ولمدة عشر سنوات كاملة بعد حصولها على « الليسانس » !!

●●●

فى عام واحد . . حصلت أمينة السعيد على الليسانس . . وتزوجت !

● هل تؤمنين بالحب ياسيدتى ؟

ـ نعم فقد تزوجت عن حب . إلتقيت به وأنا فى السنة الثانية بالجامعة . وبارك هذا الحب ، الاسرتان الصديقتان . أسرتى ، وأسرة الشاب الذى تقدم لى فورا يطلب يدى ، وتم الاتفاق على الزواج بعد التخرج . تخرجنا معا ، إذ كان هو الآخر طالبا .

إنى أؤمن بالحب ، بشرط أن يولد ، ومعه فى نفس اللحظة ذلك الإحساس المضىء بين اثنين ، ومؤداه : الزواج .

على مدى عشر سنوات . . كنت زوجة . . وأما . . وربة بيت . . وقارئة ذات خطة لاتحيد عنها . كنت فى الواقع احتشد لاستئناف رحلتى مع القلم !

وحانت البداية بعد عشر سنوات ، فى « دار الهلال » مرة أخرى . وفى مجلة « المصور » . . ولكن هذه المرة براتب قدره ، أربعون جنيها !

كان ذلك فى عام ١٩٤٥ .

. . فى السنوات الخمس التالية . . كانت أمينة السعيد قد تمرست بكل الخبرات التى ينبغى أن يتسلح بها كل من يعطى نفسه للعمل بالصحافة.عملت مندوبة للأخبار . ومراجعة للموضوعات . ومحققة صحفية وكاتبة .

وبسبب وجود أمينة السعيد فى دار الهلال فكرت الدار فى إصدار أول مجلة نسائية فى الوطن العربى . وبعد أربع سنوات من الدراسات والتجارب ، أسفر المشروع عن وجهه فى مجلة «حواء» .

وهكذا أصبحت أمينة السعيد أول رئيسة تحرير صحيفة أسبوعية ولدت كبرى . فضلا عن أن « أمينة » نفسها كانت أصغر رؤساء التحرير سنا فى تلك الفترة !

ومع كل هذا . . يبقى على طريق رحلتها الصحفية تجربة هامة . بل لعلها أدق وأخطر تجارب الأستاذة أمينة السعيد محررة باب « إسألونى» فى مجلة « المصور » منذ ٢٥ عاما !!

●●●

تقول لى السيدة أمينة السعيد :

ـ فى عام ١٩٤٨ تقدم زميلى لطفى رضوان باقتراح مؤداه إنشاء باب أسبوعى جديد فى مجلة « المصور » بعنوان : «إسألونى » . مهمته نشر مشكلة نسائية ، والرد عليها . . بشرط أن تقوم سيدات معروفات ـ أى مشهورات ـ بكتابة الردود .

وأنشىء الباب فعلا . .

وبدأت السيدات المعروفات فى الرد على المشكلات . .
وكانت المشكلة الرابعة من نصيب أمينة السعيد ، لكى ترد عليها . .
فلما نشر ردها إنهالت مشاكل القارئات والقراء . . ثلاثة آلاف رسالة فى شهر واحد موجهة الى « حضرة الكاتبة الاجتماعية الكبيرة الأستاذة أمينة السعيد » .
ومنذ ذلك التاريخ ، ومشكلات القراء ، من كل مكان فى الوطن العربى ، تطير لترتمى فى أحضان قلمها الرحيب ، وصدرها الأرحب ، وقدرتها على البذل من أجل أن تحتفظ الأسرة العربية بتوازنها الاجتماعى والعائلى .

● ● ●

« أبرز مشكلات المرأة منذ ربع قرن . . كانت مشكلات العلاقات الزوجية : الطلاق . . تعدد الزوجات . . النفقة » .
« أما فى هذه الأيام : . .. فلا تزال مشكلات العلاقات الزوجية قائمة . . وزاد عليها المشكلات التى ترتبت على خروج المرأة إلى العمل كذلك المشكلات التى تقع نتيجة الاختلاط » .
وأسأل أمينة السعيد :
● هل أنت ضد الاختلاط ؟
ـ بالعكس . أنا مع الاختلاط على طول الخط . إذ يجب أن تتلاشى المسافات الوهمية بين نصفى المجتمع . وذلك يعنى أن مجتمعنا يخرج من عزلته . وأن الاسرة البشرية فى المجتمع ، تتشابك أيديها ، وتصطف أكتافها جنبا إلى جنب ، مس أجل أن تعمل ، وأن تقيم دعائم الأسرة ، التى هى دعامة المجتمع .
إننى فقط ، ضد تشويه الاختلاط !
وتتحدث أمينة السعيد عن الشباب ، بثقة ، وحب ، وأمل :
« هم المستقبل . وسلوكنا معهم يجب أن يكون نابعا من إحساسنا بمدى المسئوليات التى سوف يتحملونها فى المستقبل » .
إن أمينة السعيد « الأم » أنجبت بنتا واحدة ، وولدين :
الدكتورة إنجى . . الأستاذة بالجامعة . والمهندس « ميكانيكا » : أحمد حازم . والمهندس الزراعى : باسل .
وسوف يدهش القارىء كثيرا حين يعرف أن أمينة السعيد « الأم » كانت حريصة أشد الحرص . . أن تجنب أبناءها مهنة تلك المتاعب ، التى تعرضت لها أمينة السعيد « الكاتبة » و« الصحفية » !
● ماهو الأسلوب الأمثل لتربية الأبناء ؟
تقول لى السيدة أمينة السعيد :

- إحترام الذات لأولادنا ، مع فرض النظام ، وعدم التدليل . وقبل ذلك ، يجب أن يكون الأب والأم نموذجين صالحين للاحتذاء بهما ، ومثالين لكل القيم والمبادىء الطيبة فى الحياة .

ومثل كل بيت فى الدنيا . . كان لبيتها مشاكله . . لكن هذه المشاكل كانت تطرح على أفراد أسرتها الصغيرة . الأب ، والأم ، والأبناء . . من أجل أن يصلوا جميعا إلى الحلول . وبهذا يتوحد الاحساس لديهم بالمشكلة ، وبتحمل المسئولية ، والتفكير المشترك فى الحلول ، والمساهمة فيها .

●●●

من أجل حقوق المرأة فى المجتمع وفى الحياة . . سافرت أمينة السعيد إلى معظم بلاد العالم . نادرا مايفوتها مؤتمر من أجل المرأة .

وعندما أوفدتها وزارة الخارجية المصرية مندوبة بلجنة حقوق المرأة فى فنلندا عام ١٩٦٧ ، لم تتعرض أمينة السعيد بالتصدى - فقط - إلى العراقيل التى توضع فى طريق المرأة ، كنصف منتج فى المجتمع الإنسانى . إنما راحت تدعو للقضايا العربية ، وتبصر المؤتمرات بالظروف الحرجة التى تعاينها «الأسرة العربية» داخل الوطن العربى ، وخارجه ، على ضوء النوايا العدوانية ، والسياسات الملتوية المتربصة بالشعب العربى وبمستقبله !

فجأة قالت لى السيدة أمينة السعيد :

« هناك معادلة صعبة فى حياة المرأة العربية ، وأقصد بها ذلك التخلف الكامن فى عقلية الرجل . إن الرجل لايزال - بالرغم من كل الحقوق التى حصلت عليها المرأة - يصر على أن تظل المرأة تابعا له . هو الذى يتخذ القرارات ، وعليها أن تطيع وتنفذ . هذه النظرة « الفوقية » من طبيعتها أن تحدث فجوة حقيقية بين الرجل والمرأة ، بسبب فقدان المرأة جزءا من شخصيتها . وهذا يؤدى الى تصدع نصف حقيقى فى شخصية المجتمع . وبسببه أيضا تتوالد الخلافات المستمرة بين الزوجين !!

أمينة السعيد تدعو إلى أن يلتقى الرجل والمرأة فى منتصف المسافة . أى ، بمعنى أن تكون العلاقة بينهما نابعة من إحساس بالتكافؤ وأن يقتنع الرجل - على وجه الخصوص - بأن زوجته تحمل نفس دلالته من الوجود . سواء لأن الطبيعة قد منحتها هذا الحق . أو لأن الحياة تفضلها على هذه الصورة ، وتطلبها .

«الحل . . هو أن تخوض المرأة معركتها بنفسها . والحل هو استقلالها الاقتصادى . العمل هام جدا بالنسبة للمرأة ، حتى تصبح قادرة على إعالة النفس . إن الحرية الحقيقية هى العمل » .

فى عيد العلم عام ١٩٦٢ . . أهداها الرئيس جمال عبد الناصر وسام الاستحقاق . كانت سعيدة نيابة عن المرأة عموما . إن التكريم الذى تلقاه المرأة على يدى الدولة ، لايشير فقط الى دلالة الحدث من حيث اتساع المجال أمام نشاط المرأة فى المجتمع العربى . وإنما ينبه أذهان الرجال كذلك إلى معنى التكافؤ الحقيقى بين المرأة والرجل .

وقد أسعدنى هذا المعنى الضمنى فى الوسام . ومع ذلك كان يشوبنى بعض الحزن . لأننى لم أستثمر كل قدراتى فى عالم التعبير بالكلمة . كان يجب أن تكون ساعات اليوم ٤٨ ساعة ، حتى نجد الوقت كاملا للعطاء ! » .

●●●

لو لم تكن أمينة السعيد « صحفية » . . لكانت أديبة !

بل لعلها دخلت مهنة الصحافة ، من باب الموهبة الأدبية !

ولابد أن قراءتها الشعر . . والشعر العمودى بالذات . . هو الذى مكن لها قدرتها على الأداء . وعلى وضع الكلمات فى مكانها المناسب من المعانى المحددة . وتذوق الايقاع ، وإشاعته فيما تكتب ، أو تتحدث .

فى رواية لها بعنوان « الطريق » قالت أمينة السعيد فى مدخلها إنها عندما ترى عيبا فى إنسان آخر . . تظل عيناها معلقتين بذلك العيب ! فهل معنى هذا ، أن أمينة السعيد مهيأة ـ بالفطرة ـ لأن تحدق فى مشكلات الآخرين ، والتفكير فيها ؟

وهل كانت مصادفة أن تختار الشاعر الإنجليزى « لورد بايرون » موضوعا لكتابها الثانى . . وهو الذى ولد بساق عرجاء ؟! أم أنها اختارته ، لأنه شاعر ثائر ؟!

الواقع أن أمينة السعيد كانت تتحسس طريقها الأدبى عن طريق قراءة واعية لكاتب بعينه . شاعرا ، أو قاصا ، أو روائيا . وكانت تقرأ باللغة الإنجليزية التى تجيدها وكانت تترجم مايروق لها من القراءات ، مؤملة أن تنقل الى القارىء حالتها الوجدانية . وهكذا ترجمت « رواية » لإميلى برونتى عنوانها : « وحى العزلة » . ومجموعتين من القصة الإنجليزية : « أمطار » و« أوراق الخريف » . وألفت روايتين طويلتين عنوانهما : « الجامحة » و« آخر الطريق» .

وعندما سافرت إلى الهند عام ١٩٤٦ كان المسلمون والهندوس يقتتلون . ولم تكن تناقضات الهند فى ذلك الوقت معروفة للعالم العربى ، فكتبت من وحى هذه الزيارة كتابا بعنوان : « مشاهداتى فى الهند » اضاءت فيه على أهم القضايا والمشكلات التى اطلعت عليها ، وتفرستها عن قرب .

لكن أمينة السعيد ، يشوبها بعض الحزن . . لأنها لم تجد الوقت الكافى لكى

تعبر عن « الفنان » فى داخلها . لم تدع لها الصحافة وقتا يوقد جذوة الأديب . وعادة يدفعها الإحساس بالحزن ، الى عمل أدبى جديد !

●●●

و . . . أسأل أمينة السعيد :

● هل تنجحين دائما فى أن تتركى مشاكل قرائك عند الباب الخارجى لدار الهلال ؟ أم أن بعضها يكون من القوة والإلحاح بحيث يصحبك إلى فراشك ، ويفسد عليك نومك ؟

- كثيرا مايحدث لى هذا . لأننى أدرك مقدما لهفة صاحب المشكلة على الاجابة . والاجابة لابد أن تتضمن الحل . والحل بالنسبة للمشكلة المعقدة ، يصبح هو الآخر معقدا . ولكنى عادة أؤمن بأن لكل مشكلة حلا . وعليه . . فإننى لا أنام حتى أعثر على الحل المناسب . . وعندئذ أستطيع النوم .

● من تجاربك الطويلة والعميقة ، مع مشاكل الناس . . من هو فى رأيك المسئول عن هذه المشاكل ؟ هل هو الفقر . . أم الجهل . . أم هو أيضا افتقاد النضج العقلى والنفسى ؟

- الفقر والجهل ، كلاهما يؤدى إلى افتقاد النضج العقلى والنفسى . وهما مسئولان بالطبع عن عدد هائل من مشكلات الأفراد . ولكن هناك عامل أساسى وهام ومسئول مسئولية مباشرة عن مشكلات كثيرة فى حياة الأفراد . ذلك هو التربية الأولى فى حياة الطفل . . فهى فى مجتمعنا تؤدى إلى عدم القدرة على تحمل المسئولية .

التربية المنزلية فى العالم العربى عليلة جدا مع الأسف الشديد !!

● هل تتعاطفين بشكل مطلق مع أصحاب المشاكل ؟ أم أنه جاء وقت عليك ، أحسست فيه أنك تريدين أن تعنفى صاحب ، أو صاحبة مشكلة . . لو أنك وجدتها أمامك ؟

- فى كل الحالات أهىء نفسى للتعاطف مع المشكلة . لكن عندما أصل إلى نهايتها وأكتشف حماقة صاحبها . . أشعر أن هذا النوع ممن تشغلهم مشاكل تافهة ، وسطحية . ومع ذلك يتلذذون بآلامها. ساعتها أتمنى لو أن صاحب المشكلة كان موجودا أمامى فعلا ، لكى أوبخه ، أو أسفه من سذاجة فهمه للمشاكل !

● بصراحة : بنسبة كم فى المائة ، تنحازين لبنات جنسك ، وأنت تدلين برأيك فى مشاكل القراء ؟

ـ بصراحة : أنا تعبت من هذه الاتهامات . عندما يصبح الرجل بريئا من المشكلة . . النساء يتهمنني بالتحيز للرجال وعندما تصبح المرأة هى البريئة يتهمنى الرجال بالتحيز لبنات جنسى . والواقع أنا لا أنحاز لغير الحق .

● مضى عليك الآن أكثر من ٢٥ سنة ، وأنت تغوصين فى أعماق المشاكل التى لاشك فى أن أكثرها متشابه ومتكرر،فهلا أحسست يوما ما أن الملل بدأ يتسرب إليك ، وأنك قد سئمت القيام بهذا الدور ، وأنه قد آن الأوان لكى تستريحى من هذه المهمة ؟

ـ ربما كان محتملا أن يحدث ذلك ، لو أن عملى فقط محصور فى حل مشاكل القراء . لكن أنا لى نشاطاتى الأخرى كرئيسة تحرير ، وكاتبة ، وعضو فى عدد من اللجان والمؤتمرات التى تبحث فى مشاكل الأسرة . إن المشاغل الكثيرة لاتترك لى وقتا للشعور بالملل . ومع ذلك ينتابنى الملل بسبب الإرهاق الشديد !

● وعندما يصبح الملل هو « مشكلتك » ، كيف تقدمين « الحل » لنفسك ؟!

ـ أسافر . السفر هو العلاج الوحيد للملل . السفر هو التجدد . إننى أنصح جميع المصابين بالملل . . أنصحهم بالسفر . .

« يوليو ١٩٧٣ »



زكى طليمات • يوسف وهبى
• نجيب محفوظ • صلاح طاهر • أحمد رامى
• أمينة السعيد • رتيبة الحفنى • نزار قبانى •
عبد الرحمن شكرى • صلاح ابو سيف
• فيروز • محمد عبد الحليم عبد الله
• محمد على كلاى • محمد لطيف •

رتيبة الحفنى

ليست قاعدة تلك العبارة التى تقول : إبن الوز عوام !
فالكثير من الأبناء ، يسلكون طريقا غير التى سلكها الآباء . . خاصة فى مجتمع المدينة ، حيث تتسع مجالات الاختيار ، أمام شتى الميول الفطرية .
فإذا كانت الفنون والآداب ، هى مجالات الآباء ، فإنهم لكثرة ما عانوا ، ويعانون . يحرصون - ربما - ألا يتعرض أبناؤهم الى ما تعرضوا له من المعاناة . وعندئذ ، يوحون إليهم ، أو يوجهونهم ، نحو مستقبل آخر !
غير أن أسرة الفنان الدكتور محمود أحمد الحفنى ، شذت عن هذه الظاهرة ، وإن لم تقترب تماما ، مما يتصور أنه القاعدة !
إن الدكتور الحفنى ، هو أول مصرى يحصل على درجة الدكتوراه فى تاريخ الموسيقى ، عام ١٩٣٠ ، من جامعة برلين .
وهو أول مصرى ينشىء المعاهد الموسيقية فى مصر وفى البلاد العربية .
وهو - الى ان رحل عن دنيانا فى عام ١٩٧٤ - كان عميدا للمعهد العالى للموسيقى المسرحية . وعميدا للمعهد العالى للباليه ومراقب عام الموسيقى بوزارة التربية والتعليم .

●●●

عندما تزوج الشاب محمود احمد الحفنى من عازفة البيانو الألمانية الهاوية « جارترود برنارد » كان دافعه الى ذلك - فضلا عن الدافع العاطفى الحميم - حبه للموسيقى . وكان طبيعيا إزاء هذا الارتباط العاطفى والفنى ، أن يكون بنات الدكتور الحفنى الثلاث جميعهن موسيقيات أو مغنيات . ولقد أشرف الأب والأم بنفسيهما على تلقين بناتهن دروس الموسيقى منذ الطفولة . وهكذا أصبح فى البيت ثلاث فتيات يجدن العزف على آلتى « البيانو » و« الكمان » .
أسرة موسيقية كاملة !
ولكن !
مع مرور السنوات ، إتجهت البنت الكبرى « أمينة » إلى دراسة الهندسة ، وأصبحت فيها بعد أول مهندسة مصرية تتخرج من كلية الهندسية !
أنيسة - هى البنت التالية لأمينة - اتجهت الى دراسة الطب . . وهى الآن طبيبة أطفال معروفة .
أما الصغرى ، فهى التى أخذت على عاتقها عبء الانحياز التام الى عامل الوراثة .

إنها الفنانة رتيبة الحفنى . . مغنية الأوبرا المصرية العالمية . و . . عميدة المعهد العالى للموسيقى العربية .

●●●

تخونها الذاكرة أحيانا .

فرأسها مزدحم بالعديد من المسئوليات والمشاغل . وهى كذلك لاتحب أن تتحدث عن نفسها . فالذين يتحدثون ، لايعملون . ومع ذلك ، فهى تذكر جيدا كيف - وهى فى الثالثة من طفولتها - كانت تسترق السمع إلى أبيها وهو يعزف على آلة « الفلوت »تصاحبه أمها على آلة « البيانو » . وكان ذلك يحدث عادة بعد أن ينام الأطفال فى البيت . هى التى كانت تظل ساهرة ، أو متناومة فى انتظار لحظات العناق الساحر بين آلتى « الفلوت » و« البيانو »

تخونها الذاكرة أحيانا .

لكنها تذكر جيدا كيف - وهى فى الخامسة من طفولتها - استطاعت أن تعزف مقطوعة موسيقية على البيانو وهى فى مرحلة الدراسة الثانوية بمعهد التربية الموسيقية . . حلمت رتيبة الحفنى أن تصبح طبيبة . وكان ذلك جائز الحدوث . لولا أن عميدة المعهد « مسز هانز هيكمان » تشبثت بها لتواصل دراستها الموسيقية .

هكذت انطفأ الحلم بدراسة الطب الى الأبد !

قلت لها : إن الموسيقى علاج لكثير من الأمراض .

قالت : إن الموسيقى لها تأثير كبير على صحة الإنسان نفسيا وبدنيا .

●●●

أوراقها الآن تخضوضر فى كل مساحة الذاكرة .

إنها أوراق فتاة مصرية ، ولدت فى مدينة « برلين » وتفتحت عيناها على ابراج الغابات الشاسعة السامقة المكللة بنديف الثلوج .

تسعة أشهر فقط هى عمر طفولة رتيبة الحفنى فى « برلين » . . عادت بعدها الأسرة الى القاهرة . فقد حصل الأب على درجة الدكتوراة .

. . وكان ذلك فى عام ١٩٣٠ .

تقول لى رتيبة الحفنى :

- صعب على الآباء أن يقوموا بمهمة التدريس لأبنائهم كانت أمى تلقننى دروس « البيانو » بمشاعر من تريد لابنتها أن تفك الغاز العالم الموسيقى فى أقصر وقت ممكن.وكان ذلك مرهقا لى كل الإرهاق . الأمر الذى قرر أبى معه أن يقوم بهذه المهمة موسيقى أجنبى معروف فى ذلك الوقت ، إسمه « هانز هيكمان »

وظللت أتلقى دروس البيانو على يديه ، حتى حصلت هلى شهادة الابتدائية فى عام ١٩٤٢ . ومن المثير للتساؤل حقا ، أن زوجة هذا الأستاذ - وكانت عميدة معهد التربية الموسيقية الذى التحقت به بعد الابتدائية - هى التى انتزعت من رأسى أحلامى فى دراسة الطب .

●●●

وهى طالبة بمعهد التربية الموسيقية . . كانت قد وصلت فى العزف على « البيانو » الى مستوى عال ، أهلها لأن تقود فرقة المعهد وتوغلت رتيبة الحفنى فى الدراسة ، فالتحقت بقسم الغناء أيضا . أدت امتحانا فى أغانى « الأوبرا » و« الكلاسيكيات » واجتازت الامتحان.فلما تخرجت من معهد التربية الموسيقية عام ١٩٤٧ . . كان ترتيبها « الأول » على دفعتها . وكانت درجات التخرج مائة فى المائة . وقد رشحها ذلك الى بعثة دراسية فى الخارج . لكن صغر سنها حينذاك . حال دون تنفيذ هذه البعثة . وهكذا التحقت رتيبة الحفنى بقسم الدراسات العليا بالمعهد . إلتحقت مباشرة بالسنة الثالثة وكان الشرط الوحيد أمامها هو أن تحصل على شهادة التوجيهية كى تحصل على البكالوريوس . ولعل ذلك هو الاستثناء الوحيد فى تاريخ وزارات المعارف ، والتربية والتعليم ، المصرية . لكن رتيبة الحفنى كانت عند حسن ظن هذا الاستثناء ، . . إذ حصلت فى السنوات الثلاث التالية على شهادتى « التوجيهية » و« البكالوريوس » . وكانت فى نفس الوقت - إلى جانب دراستها العليا فى البيانو - قد أجادت العزف على آلة « العود » .

و . . عينت معيدة بنفس المعهد .

فهل انتهت دراساتها عند هذا الحد ؟

ويظل السؤال مطروحا ، بينما تواصل عملها بالمعهد لمدة عامين ، حصلت فى نهايتها على منحة دراسية لدراسة الموسيقى ، والتخصص فى العزف على « البيانو » بأكاديمية « ميونيخ » !

وفى « ميونيخ » طلبوا منها أن تختار مادة إضافية تدرسها الى جانب دراسة « البيانو » فاختارت مادة « الغناء الأوبرالى » ! وكان مثيرا للدهشة - دهشتها ودهشة الأساتذة الألمان الذين امتحنوها - أنهم قرروا أن تتخصص فى الغناء . . وأن يكون « البيانو » هو المادة الإضافية !!

- « عامان قضيتهما فى ميونيخ ، أدرس فى معهدين فى وقت واحد.أكاديمية ميونيخ لدراسة الموسيقى . ومعهد « أوجسبورج » للتخصص فى تدريس الغناء ، وتدريب وقيادة الكورال » .

فى نهاية العامين .. حصلت « رتيبة » على شهادتى « الأكاديمية » و« المعهد » .

ثم عادت الى القاهرة .. وفى نيتها أن تهدأ قليلا من تلقى العلم . عادت لتعمل معيدة فى معهدها القديم . وفى وقت فراغها مشرفة فنية لقسم البنات بمعهد الموسيقى العربية . ثم ناظرة القسم،ثم مديرة للمعهد . ثم - وبموافقة وزارة التعليم العالى - تفرغت نهائيا لإدارة معهد الموسيقى العربية .

وفى عام ١٩٦٧ إستطاعت رتيبة الحفنى أن تضم المعهد الى أكاديمية الفنون ، فأصبح معهدا عاليا يمنح البكالوريوس ، بعد أن ظل طوال حياته معهدا متوسطا يمنح الدبلوم !

وفى عام ١٩٧٤ ، حصلت رتيبة الحفنى على موافقة المسئولين ، بأن تفتح أبواب الدراسات العليا أمام خريجى المعهد .

فهل ينتهى دورها عند هذا الحد ؟

ثم .. أين رتيبة الحفنى .. كفنانة ؟ !

●●●

بالذاكرة .. تعود الى الوراء ثلاثة عشر عاماً :

- « فى عام ١٩٦١ كانت أولى تجاربى الغنائية على مسرح الأوبرا ، فى أوبريت « الأرملة الطروب » من إخراج المخرج النمساوى « نيستار » .

● ألم تغن أغنيات عربية أبداً ؟

- تكنيك الغناء الغربى ، يختلف كلية عن تكنيك الغناء العربى . وهذا لايجعلنى أغنى الأغنية العربية .

● ما هو الفرق بين إمكانية الصوت هنا .. وهناك .

- الصوت فى الأغنية العربية محدود فى طبقة الصوت ، ومحدود فى قوته . وكل الصوت نابع من الحنجرة نفسها . لكن فى الغناء الغربى تستعمل كل الأجهزة الصوتية الموجودة فى الإنسان . ويوظف الحجاب الحاجز فى عملية التنفس أثناء الأداء . كذلك فى الغناء الغربى تستعمل الأصوات المستعارة . فهى توسع الطبقة الصوتية من ناحية الحدة . وتجعل المغنى متمكنا من أن يدمج الأصوات الصدرية ، بالأصوات المستعارة الصادرة عن رأس المغنى . وبهذه الإمكانيات ، تصبح المنطقة الصوتية عند مغنى الأوبرا ، ضعف المنطقة الصوتية عند المغنى العربى .

وكان « زرياب » فى العصر الأندلسى يدرس الغناء بنفس هذه الطريقة . ولدينا المطربة « فيروز » تغنى أغنياتها العربية بهذه الطريقة .

● والفرق بين « الأوبرا » و« الأوبريت » ؟

– الأوبرا : دراما غنائية قائمة كلها على الغناء. أما الأوبريت : فالغناء فيها عنصر من مجموعة عناصر كالرقص ، والتمثيل . والأوبريت هى أقرب الأشكال المسرحية إلى ذوق المشاهد العربى .

●●●

فى عام ١٩٦١ أيضا . . كان فى رأسى مشروع إنشاء كورال للأطفال . . وأيامها عرضت فكرة المشروع على الدكتور أبوبكر خيرت ، فرفض . فلما عرضته على محافظ القاهرة حينذاك – صلاح دسوقى – أبدى ترحيبه الشديد بتحقيق المشروع . واليوم أصبح لدينا فريق من كورال الأطفال تعداده « ١٥٠ طفلا » اشتركوا فى كل مواسم الأوبرا الإيطالية التى أقيمت فى القاهرة .

أن يعرف أطفالنا طريقهم إلى الغناء الجماعى ، وأن يشاع الهواء الموسيقى فى صدور أطفالنا ، . . فذلك لايقل إبداعا عن عملية الخلق الفنى .

●●●

عندما اتصلت هاتفيا بالفنانة رتيبة الحفنى فى الأسبوع الأخير من يوليو ١٩٧٤ ، وجدتها على الطرف الآخر من التليفون ، قادمة لتوها من دولة الكويت . كانت سعيدة بالنجاح الباهر الذى حققته فرقة المعهد العالى للموسيقى العربية ، خلال المهرجان السياحى السنوى هناك . وكانت سعيدة بالاطمئنان على أبنائها طلبه معهد الموسيقى فى الكويت . فهى الى جانب عمادتها لمعهد القاهرة ، تتولى الإشراف الفنى كخبيرة لمعهد الموسيقى فى الكويت . حيث تطير اليه مرتين فى العام . مرة فى أول العام الدراسى لتنظيم الدراسة . وأخرى فى نهاية العام لاختيار أسئلة الامتحانات .

وكانت سعيدة كذلك بالصدى الهائل لأربع محاضرات ألقتها فى الكويت ، حول « الموسيقى العربية » .

فماهى هموم الموسيقى العربية كما تراها الفنانة والأستاذه رتيبة الحفنى .

– « لقد عانى الوطن العربى من الاحتلال زمنا طويلا وهذا كان له تأثيره على الفنان الموسيقى . أما الآن ، فإن الوطن العربى آخذ فى الاستقرار . وبالتالى فهو يفكر فى تطوير نفسه . . خاصة فى مجال الفنون .

لكن أبرز هموم الموسيقى العربية الآن ، هى الأغنية الفردية . إنها للأسف الشديد ، تدور فى فلك متشابه ومتكرر ، سواء من ناحية المعنى ، أو من ناحية اللحن ! وخطورتها فى رواجها. إنها تشكل نوع الموسيقى السائدة . ومن المؤسف

حقا أن الموسيقى « المصرى » أصبح يتقبل كل الجديد الوافد من الخارج دون أدنى مراعاة لاستعمال هذا الجديد فى مكانه من موسيقانا !!

● كيف ؟

- آلة « الأورج » مثلا . إنها آلة تعطى فى الخارج ، طابعا موسيقيا معينا ، هو الموسيقى الراقصة. لكن آلة الأورج تدخل الآن فى كل أغانينا ، بما فى ذلك الأغنيات الدينية !!

. . . ومن هموم موسيقانا العربية على الإطلاق . . أن غالبية موسيقيينا لايجيدون كتابة الموسيقى . . وهذا نقص خطير فى قدرات المؤلف الموسيقى

● هل تعتقدين أن الأغنية الشعبية هى التى تحتفظ بالروح القومية عادة ؟

- الموسيقى الشعبية غنية بالروح القومية ، لأنها تلقائية وصادقة . وبالرغم من تلقائيتها ، فهى - من ناحية التكوين - صحيحة بكل مقاييس العلم الموسيقى الحديث . وياليتنا نبنى موسيقانا الآن على نفس الأسس المبنى عليها أغانينا الشعبية .

● ماهى أحلامك - إذن - للموسيقى العربية ؟

- لقد تحقق جزء من أحلامى ، بعد أن أصبح للموسيقى العربية كيان علمى صحيح ، يتمثل فى المعهد العالى للموسيقى العربية ، وقد أصبح فى مستوى كليات الجامعة .

أما بقية أحلامى . . فهو تفاؤلى بمستقبل الموسيقى العربية . إننى ألمح نهضتها المستمرة سواء فى الفن ، أم فى اتساع رقعة الجمهور الموسيقى . وهناك محاولات موسيقية كثيرة تحمل بصمات التقدم .

● أى ألوان الموسيقى يروق لك ؟

- الموسيقى الجيدة . . عربية كانت أم أجنبية . ولكن مايشبع روحى أكثر هى الموسيقى التقليدية ، لأنها أكثر تعبيراً عن المقامات العربية والإيقاعات الأصيلة . وأما تجارب الرحبانية المدروسة . . فهى تجذبنى كثيرا . . كثيرا .

● ماهى غنائياتك الأخرى غير « الأرملة الطروب » ؟

- قمت بالأدوار الأولى الغنائية والتمثيلية فى عدد من الأوبرات العالمية ، أذكر منها الآن أوبرا « لاترافياتا » و « ريجوليتو » و « أورفيو وإيرودس » و « لابوهيم » . وقد شاهدنى فى هذه الأعمال وغيرها ، جمهور فى كل أنحاء العالم . إذ قدمت هذه الأعمال فى معظم مسارح العالم ، فضلا عن مسارح القاهرة .

● من يعجبك صوته من المغنين الرجال فى مصر ؟

- جابر البلتاجى . . ويغنى من طبقة « الباريتون »

● وأنت ؟
ـ أغني من طبقة « السوبرانو »
● أى الآلات الموسيقية أقرب إلى الانفعال الهادىء ؟
ـ الناى .
● وأقربها الى الانفعال العنيف .
ـ الآلات النحاسية .
● والتى تجمع بين الهدوء والعنف .
ـ البيانو .

●●●

وأنا أتهيأ للانصراف من غرفة مكتبها فى المعهد العالى للموسيقى العربية . . كانت العميدة رتيبة الحفنى تتهيأ هى الأخرى للإشراف على امتحان مسابقة تجريها دولة الإمارات العربية ـ فى الدور الثانى بمبنى المعهد ـ لاختيار مدرسى موسيقى ، للعام الدراسى القادم .

قلت لها ، ونحن نغادر الغرفة فى الدور الثانى :

● كيف تجدين الوقت لكل هذه المسئوليات إلى جانب رئاستك لتحرير « المجلة الموسيقية » التى تصدرينها مرة كل شهر ؟

قالت :

ـ الوقت ـ كما يقولون ـ كالسيف . . إن لم تقطعه قطعك . وتنظيم الوقت هو الضابط الحقيقى للزمن . وعندئذ يمكننا إنجاز مشروعاتنا بدقة .

● ماهو أحدث مشروع أنجزتيه فى الفترة الأخيرة ؟

ـ كتاب عن « تعليم الصولفيج » يطبع الآن فى الكويت على نفقة وزارة الإعلام هناك ، ويصدر فى الشهر القادم .

« فبراير ١٩٧٥ »

• نجيب محفوظ • زكى طليمات • يوسف وهبى

• صلاح طاهر • أحمد رامى

• أمينة السعيد • رتيبة الحفنى • نزار قبانى

• صلاح ابو سيف • عبد الرحمن شكرى

• فيروز • محمد عبد الحليم عبدالله

• محـمد لطيف • محمد على كلاى •

لم أكن قد التقيت به من قبل !.
لكنى كنت قد شاهدت بعض أعماله متفرقة . .
كان يستوقفنى الإمضاء : « صلاح طاهر » . . فأحدث نفسى :
هذا الفنان يعمل فى صمت .
يجرب الألوان غير المألوفة . . فى صمت .
يرتاد آفاقا جديدة من رؤى العصر التشكيلى . . فى صمت !

كنت أتصوره هاربا من عالم الناس ، بجناحين ملونين . . اللون الأحمر فى لوحاته يذكرنى بالجرح . ومع ذلك ، فإن هذا اللون نفسه يبدو لى وسط الألوان الأخرى ، تعبيرا عن البهجة . عندئذ يتحول اللون الأحمر فى اللوحة إلى ابتسامة . وعندئذ أعود لأشاهد نفس اللوحة مرة أخرى من وجهة النظر هذه !

فى لوحة أخرى . . لاتجد لونا محددا . ويختفى اللون الأحمر تماما . . تختفى كل الألوان . . لا ترى إلا « روح » اللون نفسه وقد استحالت إلى غلالة من الضباب والشروق فى آن واحد !

التناقض داخل عالم الفنان . .
الصراع . . .
وأتساءل : الصراع . . لماذا ؟
هل هو صراع بين عالمين متضادين فقط ؟
هل هو صراع بين الفنان ، وبين عالمه المزدوج ؟
أم هو صراع الفن على المسافة ، بين صراعين . . العالم الخارجى ، والعالم الداخلى عند الفنان .

ودائما ، أشعر أن صلاح طاهر ، يحدق عينيه فى بحث دائم عن لغة تشكيلية جديدة ، لموضوعاته ، وموقفه من الحياة . يريد أن ينصهر ذلك الانصهار العظيم بين المعنى المقصود . . والحقيقة الإنسانية . . والشكل .

ويطوف بخاطرى « جمرة » الإحساس العظيم بالألم ! ولكن : أى ألم ؟ !

●●●

عندما التقيت به فى مرسمه - « ڤيللا صغيرة من الأخشاب فوق سطوح إحدى العمارات الشاهقة فى الزمالك » - أحسست أننى التقيت به كثيرا من قبل . وأننى أعرف صاحب هذا الوجه الأبيض المشرب بأولى درجات اللون الأحمر .

وذلك الشعر الفضى المتموج ، ممشطا إلى الخلف بلا عناية ، لكنه يكمل وسامة الهموم التى تنز بها عيناه ، وكأنه يحمل هموم البشر ، فى نبع صامت من الدموع !

شاهدته وسط لوحاته العديدة فى مرسمه . . قلقا ، مترقبا ، مشغولا . . حتى لتشعر أنه ـ وهو يتحدث إليك ـ على موعد دائم مع ذاته ، وعالمه ، وألوانه ، ومشاريع الدموع التى تنز بها عيناه ، كأنه يحمل هموم البشر !

ولأنها دموع كالغيم . فإنها هى التى تمطر ظلالها الرمادية ـ أو هكذا تبدو لى ـ على بشرة الألوان المتآخية فى لوحاته . فإذا طالعت إحدى لوحات صلاح طاهر ، فإنك سوف تلمس هذه التكوينات ذات الخطوط المنحنية ، وكأنها طرق تشق مجراها أمام ينابيع المشاعر الملونة القادمة من عالم الفنان ، ومن مخابيره الداخلية !

هو لايذكر ـ والأصح أنه لايريد أن يتذكر ـ لماذا نبع بداخله كل هذا الألم العظيم !!

. . ونزدحم الدموع فى عينيه أكثر !

دموع عمرها من عمره فى شهادة الميلاد : إثنان وستون عاما !

أما عمره الحقيقى ـ فهو العمر الذى أعطاه للفرشاة ، والألوان ، منذ أن تخرج من كلية الفنون الجميلة : أربعون عاما !!

●●●

سنوات التكوين الأولى . . الطفولة ، والصبا ، فى حياة صلاح طاهر كانت سنوات خصبة . فقد استقبل ميلاده بيت دين وعلم ، وأسرة موسرة ، شب على قيمها ويسرها ورعايتها . وتفتح عقله أول ماتفتح على مكتبة الأسرة وهى عامرة حينذاك بذلك الكم الهائل من مطبوعات العصر .

وكان طبيعيا أن يتسلق فضول الصبى صلاح طاهر أرفف المكتبة الكبيرة ، لينبش فى صفحات هذا العالم المسحور داخل الكتب ، وليغوص فى هذا العالم منجذبا إلى سحره . ولقد كان مثيرا للدهشة ـ دهشة الأسرة ـ أن يفصح الصبى صلاح عن إعجابه بالعقاد ، بعد أن هزته قراءته للعقاد من نخاع سنواته الـ ١٢ الغضة . وكان مثيرا للدهشة أكثر ـ دهشة العائلة ـ حين جرى صلاح طاهر إلى العقاد ، طفلا يتعثر فى ذكائه وأحلامه المبكرة ، لكى يبدى إعجابه بالعقاد . . للعقاد نفسه !

ومن يومها أصبح صلاح طاهر صديقا للعقاد !

ومن يومها صار الكتاب ، إحدى نوافذه على براح العقل الإنسانى المهموم ، بالأدب ، والشعر ، والفلسفة ، وعلم النفس ، والفنون ، والرياضيات .

ست ساعات قراءة فى اليوم . . تقلصت فى السنوات الأخيرة إلى ساعتين .

« الآن يضيق الوقت . . إننى لا أجد الوقت الكافى للإبداع . . ولليوجا » .

● اليوجا ؟ !

ـ إن الشباب الذى يتحقق للفنان فى سن الستين . . ينبغى أن يحافظ عليه جيدا . لأنه شباب ناضج . والصحة النفسية لازمة للحفاظ على هذا الشباب . واليوجا تمنحنى الصحة النفسية ، للحفاظ على هذا الشباب . فضلا عن كونها رياضة جسدية .

●●●

وعمره « ١٨ عاما » . . حصل صلاح طاهر على بطولة القطر المصرى فى الملاكمة !

ومن هنا سوف نلحظ الجانب الخشن فى تكوين صلاح طاهر !

من عالم الاسترخاء ، والحركة الذهنية ، داخل بطون الكتب . . إلى حلبة الملاكمة ، يَضْرِبُ ، أو يُضْرَبُ !

هذا التضاد فى تكوين الفنان صلاح طاهر . . هو نفس التضاد الذى ألمحه فى لوحاته . فإلى جانب خطوط الانحناء الكثيرة فى هذه اللوحات . . يندر أن تجدها خالية من بعض الخطوط المستقيمة . . إنها الجانب الخشن الصارم فى اللوحة . . التضاد . . الصراع الحقيقى داخل شخصية الفنان . . الصدق !

والصدق . . هو الموقف الثابت الذى لايحيد عنه صلاح طاهر .

والصدق . . أن يتفاعل مع الحياة بصدق . .

وأن ينفعل بها ، بصدق . .

وأن يذيب تفاعلاته ، وانفعالاته داخل مخابيره الفنية . . بصدق

كل هذه الثوابت لديه . . تؤدى فى النهاية إلى صدق التعبير . . ومن داخل ذاته هو !

ان صلاح طاهر يقف أمام الأشياء متشككا على الدوام .

يطرح حولها عشرات الأسئلة . . باحثا عن عشرات الإجابات . . وكلها من عالمه . . من السراديب الكثيرة التى تنضح بها لوحاته . . وكذلك الأنفاق النفسية التى تحفرها الألوان فهو فى كل الأوقات . . قادم من عالمه هو . . عالمه الخاص . . وبأجنحته !

يتعرف على الحياة . .

ويتساءل . .

ويمضى !

ثم يرسم الإجابة . .
وأحيانا يرسم التساؤلات ! !

●●●

الإنسان : هو موضوع صلاح طاهر . . الدائم
وهو لم يعتمد فى تناوله هذا الموضوع . . على التشريح والمنظور .
لم يشغل بهذه القاعدة أيضا فى تصوير « البورتريه Por TRait » .
وإنما أغرق الإنسان فى « أحاسيسه » هو كفنان . . ثم عبر عنه بعد ذلك . .
فتجاوز القشور الخارجية للشخصية ، إلى تضاريس ماتحت الجلد !

ومن هذه المسافة نفسها بين « السطح » و « العمق » راح صلاح طاهر يطرح الأسئلة على نفسه :

● بأى الأساليب يمكن أن يعبر عن هذه المساحة من روح الشخصية . . الإنسان ؟

ويترك نفسه فى لهاثها وراء الإجابات . . زحام الإجابات . . لكنه ـ فى غمرة التصوف الدائم داخل عالمه الفنى ـ كان ينظم هذا الزحام . . يشق لصوته الداخلى طريقا ، يهىء له أن يكون مسموعا لديه وبقوة !

عندئذ يهرع إلى الفرشاة والألوان . . يصدق الإجابات ، ويجربها .
منذ أربعين عاما وهو يجرب .
يطرح جميع المدارس الفنية وراء ظهره . .
يفقد ذاكرته أمام كل الألوان والمساحات والعلاقات التشكيلية التى شاهدها فى أعمال الفنانين الآخرين .
ينحصر داخل عالمه هو ، بحثا عن معطياته الذاتية للعالم الخارجى .
وعلى التحديد . . بحثا عن فلسفته. هو !

●●●

فى مراحله الأولى . . إستوقفه عدد من المدارس الفنية : الأكاديمية ، والأكاديمية الكلاسيكية ، والتأثيرية ، والسيريالية ، والتجريدية .

وقد حملت لوحاته المبكرة بعض حبه لهذه المدارس . ولعله لم يتجرد من هذا الحب نهائيا . . لأن عددا ـ لايذكر ـ من لوحاته الأخيرة ، يحمل بعض بصمات هذه الاتجاهات ، وإن تسللت منه على استحياء ، أمام دفق المرحلة التى يقف الآن بداخلها صلاح طاهر . وهى مرحلة ثورية شاملة ، موقعها القطب الآخر من كل الاتجاهات السابقة . المرحلة التى يطلق عليها صلاح طاهر : التجريدية التعبيرية .

●●●

قبل أن يوغل صلاح طاهر فى « التجريدية التعبيرية » كأسلوب خاص به . . وقف بعض الوقت عند مشارف هذا الأسلوب . وقف عند « التجريدية » البحتة . إستلهمها من الفن الإسلامى ، سواء فى جزئياته ، وفى عمومياته . لكنه لم يقنع بالتجريدية البحتة ، بعد أن فشلت فى أن تفصح عن أحاسيسه المضيئة بالإنسان . . الأحاسيس التى تنقر بداخله آلام المخاض فى كل لوحة . فهو يحلم لو أنه استطاع أن يحتوى كل هذه التجمعات الإنسانية . . يريد أن يجرد العنصر الإنسانى من شخصياته الفوتوغرافية . يريد أن يحول العنصر الإنسانى إلى أحاسيس مرتبطة بالشكل الإنسانى ، حتى ليصبح الإنسان فى لوحاته خارج الزمان والمكان . أى : الإنسان حيثما وجد ، بمعناه المجرد !

وفى « بؤرة » هذا الحلم التشكيلى بالإنسان . . ألقى صلاح طاهر بنفسه ! خلع ملابس الألوان الزيتية ، وسبح إلى حلمه باللونين المائيين الأبيض ، والأسود ، ودرجاتهما !

كان يريد أن يتخلص من تداخل الألوان ، لكى يمكنه أن يقبض بعينيه على حلول صريحة لتجاربه ، بحثا عن شكل جديد يقدر على حمل تلك المعاناة بداخله ، من أجل الإنسان !

وهكذا ، أصبح اللونان « الأبيض » و « الأسود » مرشده وخريطته إلى أسلوبه الأخير : التجريدية التعبيرية .

فلما تكشفت له لغته الجديدة . . إرتدى مرة أخرى ألوانه الزيتية . . وتلاقت الألوان . . وتداخلت . . بحسابات اللغة الدقيقة التى اكتشف قوانينها . مبقيا على قانونه الدائم : الصراع سراء تحت جلد اللون . أو داخل خلايا الموضوع !

●●●

فى عام ١٩٦٥ ، ومن وحى لغته الجديدة فى التعبير . . أقام صلاح طاهر ثلاثة معارض فى باريس ، ولندن ، ونيويورك . كان يريد أن يضع « لغته » فى عدد من الامتحانات العامة والمتخصصة . فلما وفد إلى معارضه الفنانون المعاصرون فى بلاد المسيسبى ، والتايمز ، وناطحات السحاب . . وقفوا أمام أعماله باحترام وإعجاب . وراح النقاد فى الدول الثلاث يغوصون بمناظيرهم فى أعماق لغته . أجمعوا كلهم على أن الأسلوب التجريدى هو غاية فى حد ذاته عند الفنان التشكيلى المعاصر . إلا أن الفنان المصرى صلاح طاهر إستخدم التجريد فى لوحاته وسيلة إلى غاية أعلا من مجرد التجريد فقط . غاية مؤداها خلق عالم

خاص بالفنان معادل لعالمه الخارجى . فهو لديه من الأشكال والألوان الموحية بقوة ، مما لاتجد له مقابلا فى الطبيعة الخارجية . لكنه عالم حى متكامل مستخلص من أعماق صاحبه مباشرة !!

●●●

الإنسان مرة أخرى ـ من خلال التجريدية التعبيرية ـ يعود إلى لوحات صلاح طاهر ، وسط مركبات من عناصر معمارية . فهو يريد أن يذكر دائما بالمكان الذى استلهم منه موضوعاته . فن العمارة الفرعونية . . الاسلامية . . ثم فن العمارة فى العصر الحديث . كل هذا بمفهوم جديد يتصل مباشرة بصميم فن التصوير المعاصر ، مع مذاق جديد عناصره هذا التزاوج بين الإنسان والمكان . بين الآدمى والبيئة . بين الشعور الإنسانى المشع من تلك العمائر ، وبين هؤلاء الناس الذين نجدهم هنا وهناك داخل التكوين الفنى !

هذا من ناحية الموضوع . .

فماذا عن علاقة العمارة بالإنسان ، من ناحية الشكل ؟

●●●

الموسيقى . . فن عمارة فى الزمان !

والعمارة . . فن موسيقى فى المكان !

بمعنى أن الموسيقى ، تخضع لقوانين العمارة . . لابد لها من « بناء »

والعمارة ، تخضع لقوانين الموسيقى . . لابد لها من « إيقاع »

وكذلك الفن التشكيلى .

إن الفن عموما هو نظام من العلاقات الشكلية

الخط المستقيم ـ أى الخط المعمارى ـ فى لوحات صلاح طاهر يقوم بمهمة التكثيف للعلاقات النفسية بين الحدة « الخط المستقيم » ، وبين الليونة « الخط المنحنى » . إنه الايقاع الذى يعطى فى النهاية ملمح الصراع الحقيقى داخل الفنان . وهو صراع من أجل الوصول إلى حلول تشكيلية ، أشبه بذلك الصراع الناشب بين قطعتين من الحجر ، لتوليد شرارة . وذلك الصراع بين قطبى الموجب والسالب فى الكهرباء ، للحصول على الضوء !

الصراع لدى صلاح طاهر . . هو الرؤية التى يلمس بها جوهر المعنى . . وجوهر الشكل . . وجوهر المتلقى أيضا .

يقول لى صلاح طاهر :

- « ليس مهما أن يصل المتلقى إلى حالتى الشعورية أثناء التعبير . المهم أن أضع إحساسه هو على حالته الشعورية أثناء التلقى . وفى هذه الحالة ، أريد أن يتحول المتلقى إلى « مبدع » عندما يعطى من ذاته هو معنى لما يراه فى لوحاتى » .

●●●

كان المصور الفرنسى هنرى روسو ، يحمل « كمانه » ويجوب الشوارع والمتنزهات . . يعزف للعشاق بعض مقطوعاته الموسيقية ، لقاء أنصاف أو أرباع الفرنكات !

كان حافزه إلى ذلك ، طيبته . . وفقره . . وحاجته الماسة إلى « الألوان » التى يرسم بها لوحاته !!

لكن صلاح طاهر عندما يعزف على « الكمان » . . يكون حافزه إلى ذلك شيئا مختلفا تماما !

فهو يريد أن يعقد مقارنة - عن طريق الإحساس فى أصابعه - بين الإيقاعات « الصوتية » فى النغم ، وبين الإيقاعات « اللونية » فى التصوير . التدرج هنا . . والتدرج هناك !

يريد عن طريق المقارنة . . أن يعقد الصلة بين إيقاعاته اللونية وبين أذن المتلقى . يريد أن يجعل منها - فضلا عن الرؤية بالعين - صوتا مسموعا .

فى بعض لوحات صلاح طاهر تسمع صوت الأشياء !

« فى لوحة . . القواقع » المعلقة فى الدور الرابع بمبنى جريدة الأهرام . . تكاد تسمع صفير تلك القواقع العديدة ، وهى تشق طريقها فى صدر الماء !! »

. . وحين يصل صلاح طاهر إلى عقد هذه الصلة بين الإيقاع فى الموسيقى ، والإيقاع فى اللون . . تصبح موسيقى الآخرين - وقد انسابت حوله فى أرجاء مرسمه - هى الغلاف الذى يرتديه - وهو عار تماما - أثناء الرسم . يستقبل الموسيقى بمسام جسده ، حتى ليمتلىء بالنغم ، وحتى تمتزج الألوان فى داخله ، بالأصوات الموقعة !

ڤاجنر ، وبيتهوفن ، وتشايكو فسكى ، وكورساكوف ، وبرامز ، وسترافنسكى ، وديبوسى . . يعشق موسيقاهم .

الموسيقى - وبخاصة تلك التى يتوفر لها العنصر الدرامى - تحرك فى داخله مشاعر وأحاسيس ، توشك أن تستحيل إلى شكل ولون ، وعلاقات تشكيلية .

. . ولقد ولدت لوحته « شهر زاد » ذات أمسية ، بينما كان يستمع إلى « شهر زاد » كورساكوف !

●●●

ذكريات حادث قديم ، مازالت تطل من عينيه بندى أحزان قديمة عمرها إثنان وخمسون عاما !

كان فى العاشرة ، حين تعرض جسده - لأول وآخر مرة - إلى عصا أبيه !

هو لايتذكر الخطأ الذى ارتكبته طفولته !

لكنه يتذكر آثار العصا على كبرياء روحه ، وطفولته !

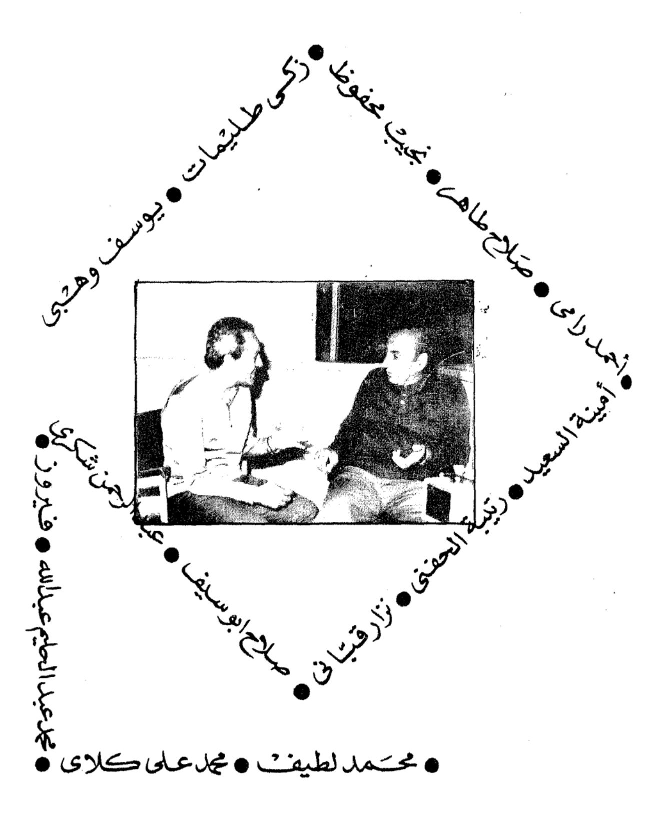
ولعل من آثار هذا « الحادث » . . أنه كان يهرب إلى الطبيعة لكى يتلاشى فى خضرتها .

ولعل من آثاره أيضا . . ذوبانه كليا فى الألوان التى يرسم بها .

بل لعل آثار هذا الحادث نفسه ، هى التى أسلمته إلى الاستغراق بحثا عن عالم خاص ، يلوذ به من هجير الألم العظيم الذى تسلل إلى روحه

العالم الذى ينهل منه اليوم موضوعاته . . وألوانه . .

« ديسمبر ١٩٧٣ »



زكي طليمات • يوسف وهبي
نجيب محفوظ • صلاح طاهر • أحمد رامي
أمينة السعيد • رتيبة الحفني • نزار قباني
صلاح أبو سيف • عبد الرحمن شكري
فيروز • محمد عبد الحليم عبد الله
محمد لطيف • محمد علي كلاي

محمد لطيف

محمد لطيف .. أو الكابتن لطيف ، لاعب الكرة القديم ، والحكم الأسبق .. كلنا يعرف أن مباريات الكرة ترتبط الآن بصوته !

الذين استمعوا إلى المباريات عن طريق ميكرفون الإذاعة ، شاهدوها بعينى هذا الصوت ! فمن خلاله ، إنتقلت المباراة إلى ذهن المستمع ـ وربما بحذافيرها ـ إلى عينيه !

فلما أنشىء التليفزيون العربى بالقاهرة عام ١٩٦٠ ، كشفت الشاشة عن وجه المباراة ، ووجه الصوت معا . أصبح صوت « لطيف »قاسما مشتركا ، وعنصرا مكملا للمباريات المرئية .

إن جمهور الكرة من مشاهدى التليفزيون ، لايجلس أمام الشاشة الصغيرة من أجل متابعة المباراة فقط . وإنما كذلك من أجل متابعة « الصوت » الذى يقف به محمد لطيف بين تفاصيل المباراة على أرض الملعب ، وبين فضول المتابعة فى أعين الجماهير !

.. وعلاقة محمد لطيف الكاملة بالكرة ، ترجع بدايتها ـ ونحن الآن فى عام ١٩٧٣ إلى ستين عاما تقريبا !

فمتى كانت هذه البداية ؟

وماهى أبعاد تلك العلاقة ؟

البداية .. يحكيها محمد لطيف بصوته .

صوته ، يقترب كثيرا من طريقته فى التعليق على المباريات .

لكن المباراة هنا ، بين الطفل الذى ولد فى ٢٣ أكتوبر ١٩٠٩ ، وبين أحلامه الصغيرة خلال سنواته العشر الأولى .. والكرة التى فرضت إغراءها على عالمه الطفولى المبكر :

كان بيتنا فى « درب الجماميز » يقع بجوار سبعة ملاعب لكرة القدم . كان اسمها ملاعب « قرميدان » وكان أول شىء لفت اهتمامى ـ عندما بدأت أدرك الأشياء ـ هو الكرة .. وحسين حجازى .. وزوبة .. وفؤاد الجميل .

بجوار هذه الملاعب ، كنت أقرفص جالسا ، محملقا فى أقدام اللاعبين وهى تحاور بالكرة .. أو تشوطها . وكان كلى ينتفض عندما يحقق أحدهم هدفا ، وتدخل الكرة فى الشبكة .

كنت أتابع الأقدام ، وأتطلع إلى قدمى الصغيرتين .. وأحلم !

وفى الطريق إلى بيتنا ـ بعد انتهاء اللعب ـ كانت قطع الطوب فى طريقى تتحول إلى كرات . وكثيرا مادميت أصابعى وأنا أشوطها ، متجاهلا أننى أنتعل صندلا .. لاحذاء !

وفى المساء .. أنام ، بينما صورة الكرة تظل معلقة بقدمى ، ورأسى يتحول إلى ملعب كبير ، أصول بداخله وأجول ، وأشوط فى الشبكة !

عندما التحق الطفل محمد لطيف بمدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية الابتدائية فى حى « درب الجماميز » عام ١٩١٩ ، كانت مدرسة الخديوية الثانوية ـ الشهيرة حينذاك بملعبها ولاعبيها سيد الحسن ومختار فوزى وغيرهما ـ تجاور المدرسة الابتدائية .

وكانت لحظة السعادة الحقيقية فى حياة الطفل محمد لطيف ، هى تلك التى يتسلق فيها سور مدرسته ، ويجلس فوقه ، ليتمكن من مشاهدة المباريات التى يقوم بها فريق « الخديوية الثانوية » مع الفرق الأخرى . فى تلك اللحظات ، كانت تعصف الأحلام برأسه ـ وكانت أحلامه تتعلق باليوم الذى يلتحق فيه بـ « الخديوية الثانوية » ليصبح واحداً من أعضاء الفريق .

وهكذا ...

من خلال المعايشة ، والتأمل ، والتعلق بملاعب « قرميدان » .

ومن فضول لحظات المشاهدة فوق سور المدرسة الابتدائية ..

ومن فورة الحلم المبكر بعالم الكرة ...

إستطاع الطفل محمد لطيف الطالب بالسنة الثانية الابتدائية ، أن يصبح « كابتن » فريق مدرسته فى كرة القدم !

وكان ذلك أولى خطواته « العملية » إلى عالم الكرة !!

●●●

فى عام ١٩٢٥ .. إلتحق محمد لطيف بالسنة الأولى بمدرسة الخديوية الثانوية ! هذه خطوته الثانية على طريق الحلم تتحقق بدلا من مشاهدة الفريق من فوق السور . أصبح يشاهده من أرض الملعب نفسه . وظل عامه الأول ، يستذكر دروسه ، ويشاهد مباريات فريق مدرسته ... فلما انتقل إلى السنة الثانية ، قرر أن يخوض تجربة الانضمام للفريق .

كانت « الخديوية الثانوية » بها ثلاث فرق لكرة القدم .

فرقة من الدرجة الأولى ..

وأخرى من الدرجة الثانية .

والفرقة الثالثة ، للأشبال .

فإذا تقدم أحد من الطلبة لكى ينضم إلى إحدى هذه الفرق ، أجرى له اختبار . وكان الاختبار يتم باختبار ثلاثة من المتقدمين ، ليلعبوا ضد ثلاثة من الفرق الثلاث . وبهذه الطريقة تتحدد درجة كل لاعب من المتقدمين ، ليلتحق بالفريق الذى يصلح له .

ودخل الطالب محمد لطيف « ثانية ثانوى » هذه الاختبارات ، وجاء ترتيبه فى النجاح مؤهلا لانضمامه للفريق الثانى . وبعد عام من الاجتهاد ، إستطاع أن ينتقل إلى الفريق الأول .

أصبح لاعبا من أوائل اللاعبين فى فريق المدرسة .

وعلى مستوى مباريات المدارس والمعاهد العليا .. بدأ جمهور الكرة يعرف إسم « محمد لطيف » .. ويتعلق بقدمه الذكية .. السريعة .. القوية .

يقول محمد لطيف .

فى ذلك الوقت ، كان حسين حجازى يمثل عظمة الكرة المصرية . وكان فريقه ـ فريق الأهلى ـ ذا شهرة عالمية . وكنت من أشد المعجبين بحسين حجازى ، رغم أننى كنت أنتمى روحيا إلى فريق الزمالك ، وكان اسمه « المختلط » آنذاك .

فى عام ١٩٢٧ ، إنتقل حسين حجازى ـ لاعبى المفضل ، ومثلى الأعلى فى الكرة ـ إلى نادى الزمالك . ولك أن تتصور مدى فرحتى بذلك .

لكن الذى حدث فيما بعد ـ وفى العام التالى ١٩٢٨ ـ كان فوق قدرتى على الفرحة والدهشة معا . فلقد طلبنى نادى الزمالك لألعب مع حسين حجازى شخصيا « !! » . وكان شرفا كبيرا ظللت سعيدا به لمدة أربع سنوات إذ اعتزل بعدها حسين حجازى ، وبقيت فى الزمالك أكمل بقية المشوار .

فى ذلك العام ١٩٣٢ ، انتخبت لتمثيل مصر فى كأس العالم بإيطاليا ، بعد أن فزنا فى الأدوار التمهيدية على فلسطين بالقاهرة وفلسطين .

و .. عدت من إيطاليا لأجهز حقائبى للسفر فى بعثة دراسية إلى انجلترا !!

●●●

ذكريات كابتن لطيف .. أشبه بكرة ذكية فى الملعب سريعة الإيقاع .. تتجاوز التفاصيل ، لتقترب ـ أكثر ـ من الأهداف .

فى أواخر عام ١٩٣٢ .. سافر إلى انجلترا . إلتحق بكلية « جوردون هل » GORDON HILL ليتخصص فى التربية لمدة خمس سنوات . وهناك .. وجد محمد لطيف تزكيتين هامتين بشأنه وصلتا من القاهرة . إحداهما من

الاسكتلندى مستر « سامبسون » مراقب التربية الرياضية فى مصر . والأخرى من المستر « جيمس ماكراى » مدرب فريق مصر الأهلى . والتزكيتان موجهتان إلى نادى « الرانجرز » لكرة القدم ، أكبر أندية اسكوتلاندا فى ذلك الوقت . وفى التزكيتين توصية بضم اللاعب المصرى محمد لطيف إلى فريق النادى .

ولمدة خمس سنوات .. ظل محمد لطيف عضوا لاعبا فى أكبر أندية اسكوتلاندا ، وطالبا متفوقاً ـ فى نفس الوقت ـ بكلية جوردون هل .

عن إحدى ذكريات العام الأخير فى البعثة .. يحكى لى محمد لطيف :

ـ عام ١٩٣٦ ، وكانت القاهرة تتابع نشاطى أولا بأول عن طريق « التلغرافات » ، وقع الاختيار علىَّ ، لأسافر من انجلترا إلى برلين ، التمثيل مصر فى الدورة الأولمبية فى مباراة « مصر ـ النمسا » وفى تلك المباراة ، صادفنا سوء الحظ . فبعد ابتداء المباراة بـ ٦ دقائق ، أصيب « التتش » كابتن الفريق بشرخ فى قدمه . ولعبنا بدونه ، إذكان القانون فى ذلك الوقت لايسمح بالتغيير . وأمعن سوء الحظ معنا ، ففوجئنا فى الشوط الثانى بإصابة وجيه الكاشف . وبقيت أنا رئيسا للفريق على ٩ لاعبين لكن سوء الحظ كان مصرا على ملازمتنا . إذ أمطرت السماء مطرا غزيرا ، ووحشيا .

وبالرغم من أن النمسا فى ذلك الوقت ، كانت تتسيد أوربا فى كرة القدم .. فقد كانت النتيجة فقط ٣ ـ ١ لصالح النمسا .

●●●

فى أغسطس ١٩٣٧ .. حصل محمد لطيف على بكالوريوس التربية البدنية والصحية . وعاد الى القاهرة ، ليكمل رحلته ـ لاعبا ـ لنادى الزمالك . وفى نفس الوقت ، عين مفتشا للتربية البدنية فى وزارة المعارف .

فى عام ١٩٤٥ إعتزل الكرة ، واتجه إلى التحكيم .

وفى عام ١٩٥٦ ، إعتزل التحكيم أيضا ..

بعد أن اعتزل الكرة بثلاث سنوات ـ أى فى عام ١٩٤٨ كلفته الإذاعة ، بإذاعة تمرينات الصباح مع محمود بدر الدين .

ومن يومها ، إرتبطت المباريات بصوته . حتى أنشىء التليفزيون ، فأصبح محمد لطيف نجم التعليق التليفزيونى على المباريات .

●●●

فى تلك الجلسات المتكررة التى جمعتنى بالكابتن لطيف ، صديقا وزميلا ، فى بيته ، أو فى مكتبى بمجلة الإذاعة والتليفزيون ، حين يأتى لتسليم بابه

الرياضى الأسبوعى .. كان يحلو لى أن أفتش فى آرائه حول الكرة . وكنت أنصت إليها شغوفا بأهميتها ووزنها ، وخبرة صاحبها .

ذات جلسة من تلك الجلسات فى بيته .. قلت له :

● كل جيل من لاعبى الكرة ، يقل ـ بصورة أو بأخرى ـ عن الجيل السابق من حيث الإمكانات ، والجدية ، والطاعة ، والإخلاص للعبة . ما مدى صحة هذه الملاحظة . وما هو تفسيرك ، كلاعب قديم ، وإدارى ، ومعلق ، لهبوط الخط البيانى للشخصية الكروية ؟

قال :

ـ هذه ملاحظة صحيحة مائة فى المائة . وهناك أسباب تؤيدها وحاصل هذه الاسباب ، يجعلنا نشير الى الجيل الأول فى الكرة باعتباره أفضل جيل كروى .

السبب الأول : كان مستوى صحة الشبان فى الأيام القديمة أحسن . ربما لأن المدنية كانت أقل . وبالتالى كان الشبان لايعرفون مباهج الحياة وما هو شائع الآن . وسوف تدهش كثيرا حين تعرف أن معظم لاعبى الكرة ـ إن لم يكونوا كلهم ـ لايدخنون ، ولايسهرون ، ولا يعرفون كثيرا عن الحياة . كانت كل هواياتهم ، وكل معرفتهم ، تتصل بالكرة .

السبب الثانى : كان عدد سكان مصر فى ذلك العام ١٩٢٤ حوالى ١٥ مليون نسمة . وكانت المبانى أقل . وبالتالى كانت مساحات الفضاء اكثر واكبر . مما اتاح للشباب ان يجد ملاعب كثيرة لكرة القدم . وقد خرج من هذه الملاعب ، لاعبون أفذاذ .

اما السبب الثالث : فإن نظام اليوم الكامل بالمدارس ـ زمان ـ وتقديم وجبة غذائية كاملة للطلبة . . كان يساعد فريق كرة القدم على التدريب المستمر فى ملاعبهم . وكانت المدارس تقدم وجبات خاصة لأبنائها اللاعبين ، تتناسب والمجهود الكبير الذى يبذلونه فى التدريب .

فإذا جئنا الى السبب الرابع ، وهو على جانب كبير من الأهمية .. لأنه يتصل باحتكاك اللاعبين المصريين بالفرق البريطانية ، حيث كانت مصر مستعمرة للإنجليز . وكان اللاعب المصرى يستميت فى ايقاع الهزيمة بالفرق الانجليزية ، كتعبير عن موقفنا من الاستعمار . إذ كانت الكرة فى ذلك الوقت هى الأسلوب المسموح به لممارسة الانتصار والتفوق .

يصمت الكابتن لطيف لحظة ، كأنه غاص فجأة فى زحام من ذكريات تلك الفترة . . ثم يتكلم :

ـ أضف الى كل هذا .. جدية اللاعبين القدامى .. وطاعتهم .. وإخلاصهم للكرة ، وتشبثهم بالنصر دائما .

قلت للكابتن لطيف :

● ما هى المواصفات التى ينبغى أن تتوفر فى لاعب كرة القدم . ومن من اللاعبين « القدامى » و « الجدد » توفرت لديهم هذه المواصفات ؟ فى هذه اللحظة هبت عاصفة ترابية ، من نافذة غرفة الصالون التى نجلس بها . نهض كابتن لطيف من مقعده رشيقا ، فى حيوية أغلق النافذة .. وعاد الى الحديث :

ـ أن يكون اللاعب موهوبا . ومخلصا للعبة . وأن يضحى بنفسه لصالح فريقه وبلده . وأن يطيع أوامر مدربيه وإدارييه . لايغتر بنفسه عند الفوز . ولاييأس عند الهزيمة . وأن يتعاون مع زملائه . ويحافظ على صحته .

هذه المزايا جميعها كانت متوفرة عند حسين حجازى ومختار التتش من لاعبى الجيل الأول .

أما بالنسبة للاعبين فى هذا الجيل .. فأرجو أن تعفينى من الإجابة . كما أرجو فى نفس الوقت من لاعبى هذا الجيل أن يتمثلوا الأجيال الأولى ، لتتحقق هذه الميزات فى كثيرين منهم .

● ما هى الفروق الجوهرية بين اللاعب العربى . واللاعب الأوروبى ؟ والى أى الأسباب ترجع هذه الفروق ؟

ـ اللاعب الأوروبى وصل الى هذا المستوى الرفيع بالاحتراف ، وما يتبع الاحتراف من تدريب ، وتجهيز ، وعناية طبية الى آخر الإمكانات التى يصبح بها اللاعب عملة جيدة.أما نحن العرب ـ كلاعبين ـ فلا نأخذ بالهواية . ولاعبونا يريدون أن يحصلوا على جميع الحقوق ، دون أن يقوموا بالواجبات الملقاة على عاتقهم .

● من هم فى نظرك أحسن خمسة مهاجمين دوليين ؟ وأحسن خمسة مدافعين دوليين ؟

ـ بالنسبة للمهاجمين يأتى إسم المايسترو « دى ستيفانو » فى مقدمتهم . يليه الجوهرة السوداء « بيليه » ، ثم « بوشكاش » و « استانلى ماثيوس » وأخيرا « جارينشيا » البرازيلى .

أما المدافعون ، فيأتى إسم « ياشين » جول روسيا ، فى المقدمة ، رغم أنه اعتزل منذ خمس سنوات . ويليه « بوبى مور » إنجلترا ، و « بيكين باور » ألمانيا الغربية ، و « بانكس » جول انجلترا ، و « جيلما سانتوس » باك البرازيل .

● على مستوى العالم ، من هو حارس المرمى الأول ؟ ومن هو الذى يليه فى هذا المضمار ؟

- ياشين « الروسى » . ومن الحاليين : بانكس « انجلترا » .

● أتفق على أن « بيليه » هو ملك الكرة فى عصرنا فما حجم الحقيقة ، وحجم الدعاية فى هذه « الملوكية » من وجهة نظرك ؟

- مما لا شك فيه أن « بيليه » لاعب ممتاز جدا . لكن فى نظرى ، يزيد عنه « دى ستيفانو » بأنه المايسترو فى الملاعب . وعليه ، فأنا أضع « دى ستيفانو » قبل بيليه .

● هل هناك دائما وقت مناسب ، ينبغى على اللاعب أن يعتزل فيه الساحة ؟

- إذا وصل اللاعب إلى نقطة العجز عن الاحتفاظ بالقمة التى وصل اليها ، وجب عليه فورا ان يعتزل . ولقد طبقت هذا على نفسى كلاعب . . وحكم ، وأرجو أن يوفقنى الله لتطبيق هذه القاعدة ، كمذيع ومعلق تليفزيونى للمباريات .

● أنت كمعلق يخاطب الجماهير على اختلاف ميولها . . هل تشعر أنك فى كل الأوقات ، قادر على التجرد من « زملكاويتك » ؟

- الآن - وبعد ٢٥ سنة كمعلق إذاعى على المباريات - أصبحت الحقيقة ونقلها الى الجماهير ، هى هدفى الأول . إننى كبشر لى شعورى الخاص . ولكن بعد هذه السن والخبرة أمام الميكرفون ، أمكننى أن أفصل شعورى الخاص ، عن واجبى أمام الملايين .

● من هو الشخص الذى ترشحه بدلا منك للتعليق التليفزيونى على المباريات . . فى حالة ما إذا كنت خارج مصر ؟

- حسين مدكور .

● وإذا عدت « لاعبا » مرة أخرى . . من هو « اللاعب » الذى تحب أن تكونه ؟

- أحب أن أكون حسين حجازى . وإذا تعذر على ذلك أحب أن أكون مصطفى كامل طه « المرحوم » ، أو عبد الكريم صقر .

● لو أنك خصصت خمس ميداليات باسمك ، لكى تعطيها لأحسن خمسة لاعبين . . فمن هم هؤلاء اللاعبون الذين تهديهم ميدالية محمد لطيف .

- على أبو جريشة « الاسماعيلى » - هانى « الأهلى » - بوبو « الاتحاد السكندرى » - مصطفى يونس - « الأهلى » - وفاروق جعفر « الزمالك » .

واستطرد محمد لطيف ضاحكا .

- هل اقتنعت أننى مجرد تماما من زملكاويتى ؟!

● ومتابعة المباريات . . هل لاتزال ممتعة ومشوقة بالنسبة لك ؟ أم أنها فقدت هذين الشعورين لديك ، باعتبار أن ذلك صار عملا ؟

ـ الكرة هى عالمى الممتع لمدة ٢٤ ساعة فى اليوم . ومتعتى تتجدد أكثر ، كلما شاهدت مباريات أكثر . وتزداد متعتى أكثر وأكثر عندما أقوم بالوصف التفصيلى للمباريات ، سعيدا بكونى مرتبطا بالمشاهدين ، الذين هم متعلقون بصوتى وتعليقاتى . أضف إلى ذلك أن شهرتى العريضة تحققت « بشدة » من خلال قيامى بالتعليق . . وهذه أيضا متعة ، تجعلنى أستمتع بمتابعة الكرة ، وبالتعليق عليها .

● ما هى ـ فى رأيك ـ الصفات التى جعلت من محمد لطيف معلقا محبوبا من الجماهير .

ـ الموهبة . والصوت المألوف . والحيدة التامة . ومعرفتى بأصول اللعب ، كلاعب ، ومحكم ، وإدارى . أضف الى هذا الاطلاع الدائم على كل ما هو حديث وجديد فى عالم الكرة ، سواء فى التكنيك ، أو فى التحكيم .

● هل هناك معلقون ـ فى العالم ـ تحب ان تستمع اليهم ؟

ـ هناك المعلق التليفزيونى الانجليزى « كينيث ونستون هولم » ، وهو صديقى . وأتذكره دائما حين أكون فى حالة التعليق على مباراة ، فعندما أقول : الجو اليوم صحو . . والشمس مشرقة . . أكون قد تذكرت صديقى « هولم » حين كان يقول فى انجلترا معلقا:الجو غائم . . والضباب ينتشر . . والمطر ينهمر .

وهناك ايضا مذيعان معلقان ـ لا اتذكر إسميهما الآن أحدهما من المجر ، والآخر برازيلى . . يعجبنى تعليقهما .

● أعرف أنك أب لولد وبنت . لماذا خلت ملاعب الكرة من ابنك « ابراهيم » ؟ هل يرجع ذلك الى انك لم تحببه فى الكرة ؟ أم أنه هو الذى يرغب فى ذلك .

ـ حاول « ابراهيم » أن يكون لاعب كرة بالفعل . وقد لعب لمدرسته الابراهيمية الثانوية ، ولكلية الشرطة ، ولمعهد التربية العالى بالهرم لكنه لم يوفق فى أن يكون موهوبا . وبالتالى فهو لم يلعب لأحد الأندية الكبيرة . وهو الآن ـ كما تعرف ـ يعمل مساعد مخرج بالتليفزيون .

● سؤال أخير .

إذا كانت الكرة فنا واذا كانت الفنون جميعها تؤدى رسالة لدى المتلقى . . فما هى رسالة كرة القدم إزاء جماهيرها الكبيرة ؟

حدَّق محمد لطيف فى سماء غرفة الصالون لحظة ثم ، وهو يضغط على مخارج الحروف قال :

ـ المتعة التى تحققها كرة القدم لهاو حقيقى . . لاتعادلها متعة اخرى ، وسوف تندهش اذا عرفت أننى أسافر فى اجازاتى الى الخارج وربما أنفقت كل مدخراتى فى سبيل أن أشاهد المباريات فى أوربا . . متعتى وأنا أعيش فى هذا الجو من الرياضة والتشجيع الموضوعى ، لا تعادلها متعة الاحتفاظ بالمدخرات مهما كانت كثيرة . تماما كما نسمع أن كثيرا من إخواننا العرب يجيئون الى القاهرة لحضور حفلات السيدة أم كلثوم .

« يوليو ١٩٧٣ »


زكى طليمات
نجيب محفوظ
صلاح طاهر
أحمد رامى
يوسف وهبى
أمينة السعيد
رتيبة الحفنى
نزار قبانى
صلاح ابو سيف
عبد الرحمن شكرى
فيروز
محمد عبد الحليم عبد الله
محمد لطيف
محمد على كلاوى

عبد الرحمن شكرى

رأيته مرة واحدة !

كان ذلك فى عام ١٩٥٦ ، والندوات الأدبية فى مدينة الاسكندرية ، تنشط فى النوادى ، وبيوت الأدباء . تخطف لياليها صفوة المتأدبين والشعراء من أبناء الثغر .

رجل واحد لم يكن يقدر على ارتياد هذه الندوات ، هو : عبد الرحمن شكرى ! حتى كانت تلك الليلة التى سألت فيها : لماذا يختفى وجه وصوت عبد الرحمن شكرى من هذه الندوات ؟! وليلتها عرفت السبب . عرفت أن الشلل أقعده عن الحركة ! وأن المرض والوحدة ، أطفآ بظلماتهما مشاعل التفكير فى رأسه ، فاستكان الى الظلمة والصمت ينتظر معهما لحظة تنتهى عندها آلامه ، ويخلد الى الراحة ، بعد عناء الرحلة التى قطع على أشواكها سبعين عاما !! وتذكرت – ليلتها – أننى عشت ربع عمرى مع عبد الرحمن شكرى . عشته متنقلا على أفنان شعره ، ونثره . من ديوان الى ديوان . ومن كتاب الى كتاب . حتى ضرام المعركة الضروس التى شنها عليه المرحوم « المازنى » كنت قد خضت لهيبها – قارئا – « الديوان » وهو الكتاب الذى حمل لواء المعركة . ولست أدرى ، لماذا أشفقت عليه حينذاك . ربما لأنه كان مظلوما . وربما لأنه توقف عن الكتابة . وربما – أيضا – لأننى أحببته ، وأحببت شعره ونثره .

فى مساء تلك الليلة من عام ١٩٥٦ ، ولدت من كل هذه الأحاسيس رغبتى فى أن أرى عبد الرحمن شكرى . ورحت أقطع الطريق اليه . . فى سيدى بشر ورأيته !

كان حطاما لإنسان تلهث وراء ضلوعه بقايا أنفاس حياة ، أنهكتها الكهولة ، وأضناها الشلل ! لم أتحدث إليه . . ولم يتحدث إلى ! نظراته الكليلة الخرساء ، كانت اللغة الوحيدة التى يتبادل بها « الحديث » مع زواره « القليلين » ! وكانت نظراته – على صمتها – تفصح عن كل المعانى الغارقة فى عجزه ، وأحزانه ، ووحدته !

●●●

ينحدر عبد الرحمن شكرى من أسرة مغربية وفدت الى القاهرة ، فاستوطنت « الجيزة » ، فى فترة كان الخديوى توفيق على رأس الحكم والأحداث ترسم

الطريق الى قيام الثورة العرابية : فالجيش والشعب فى جبهة . والخديوى وأتباعه فى جبهة أخرى . وكان شكرى - والد عبد الرحمن - من الموالين لثورة عرابى ، والداعين لها . . فحكم عليه بالسجن زمنا . . وشرد من وظيفته فترة طويلة .

فى أتون هذه الظروف - وبالتحديد فى ١٢ أكتوبر عام ١٨٨٦ - ولد عبد الرحمن شكرى فى مدينة بورسعيد . وتلقى العلم فى مدارس تسيطر عليها أساليب تربوية يفرضها الاستعمار فعرفت العصا طريقها الى ظهره . وعرف الخوف - من المدرسة - طريقه الى صدره . فكره المدرسة . ووجد فى مكتبة أبيه عزاء لوجدانه الجريح . راح يدفن أحزانه وآلامه فى دواوين إبن الرومى . وابن الفارض ، والبهاء زهير ، والمتنبى . ثم اتجه الى شعر البارودى ، الشريف الرضى ، وأبى تمام وأبى نواس ، وغيرهم من الشعراء . وهيأت له ظروف أبيه أن يلتقى بعبد الله النديم كلما نزل على منزلهم ضيفا ، فعرف المثير من شعره وأدبه . . وثورته .

غير أن خوفه من عصا المدرس ، لم يصرفه عن المدرسة ، فحصل على الشهادة الابتدائية ، والتحق بمدرسة المعلمين بالقاهرة . وفى مدرسة المعلمين ، قرأ كتاب « الأغانى » وديوان الحماسة،ثم قرأ « بيرون » و« شيلى » و« براونتج » فاكتشف فى قصائدهم ألوانا جديدة من الشعر .

فلما أتم مرحلة الدراسة فى مدرسة المعلمين . . سافر الى انجلترا ليكمل دراسته هناك . وهناك ، أتيح له أن يطلع على روائع الأدب الإنجليزى خاصة ، والأدب العالمى المترجم الى اللغة الانجليزية ، عامة،فعمقت ثقافته ، وتجاربه . ثم عاد الى مصر ليشتغل بالتعليم ، مدرسا ، فناظرا لعديد من المدارس الثانوية ، ثم مفتشا . ورغب فى الاستقالة من الوظيفة ، فاستقال . ورحل الى بورسعيد حيث عاش سنوات طويلة بجوار البحر . . الى ان أصيب بالشلل . . فترك بورسعيد إلى الاسكندرية عام ١٩٥٥ .

●●●

كان عبد الرحمن شكرى فى الثالثة والعشرين من عمره ، حين صدر ديوانه الأول « ضوء الفجر » عام ١٩٠٩ولم يكن قد عركته التجارب والحياة . غير أن ومضات التجديد والتطوير التمعت فى قصائد الديوان ، فراح « المازنى » يشيد بها ، ويدافع عنها فى سلسلة من المقالات .

وكتب حافظ ابراهيم الى الشاعر :

أفى العشرين تعجز كل طوق
وترقصنا بأحكام القوافى
شهدت بأن شعرك لا يبارى

وزكيت الشهادة . . باعترافى
لقد بايعت قبل الناس شكرى
فمن هذا يكابر بالخلاف ؟

وفى عام ١٩١٣ صدر الجزء الثانى من ديوان شكرى « لآلىء الأفكار » وبه مقدمة طويلة لعباس محمود العقاد ، يقول فيها :

« إن هذا الشعر لاينحدر انحدار السيل فى شدة ، وصخب وانصباب . ولكنه ينبسط انبساط البحر فى عمق . . وسعة . . وسكون » .

وفى هذا الديوان ، طالعتنا نماذج من الشعر المنثور ، وقصائد من مختلف البحور والقوافى . وقرأنا كيف يتغنى الشاعر بالجمال ، والحب ، والوطن كان يدعو مصر إلى مواصلة رحلة الحضارة ، والتحرر من قيود الجمود والركود :

كنت مهد العلوم ، والذهن طفل
كنت أم النعيم . . وهو وليد !

ثم يصدر « أناشيد الصبا » الجزء الثالث من دواوينه ، فى عام ١٩١٥ ، فتقف على مذهبه فى الشعر . وهو أن يكون الشعر ذا عاطفة مهما اختلفت أبوابه .

لم يكن عبد الرحمن شكرى يقصد بشعر العواطف رصف الكلمات الميتة التى تدل على التوجع ، والأسى ، والألم . وإنما هو يريد من الشاعر أن يدرس عواطف الناس ، ويقف على أسرارها ، وعمقها ، وجوهرها .

وقد اتضحت هذه الدلالة فى معظم قصائد الديوان . .

أما الجزآن الرابع والخامس « زهر الربيع » و« الخطرات » فقد صدرا عام ١٩١٦ ، وفيها كان يحلم بميلاد بطل عظيم ، يجمع الناس حول فكر عظيم ، ويكون قائدا لهم .

ليصبح عزم الناس رهنا بعزمه
فيخمد منهم آسر . . وأسير
كأن نفوس الناس طير تشردت
وللطير فى نفس العظيم وكور

وفى عام ١٩١٨ ظهر ديوانه السادس « الأفنان » وبه أكثر من أربعين قصيدة . .

فإذا جاء العام التالى ١٩١٩ ، صدر الجزء السابع « أزهار الخريف » .

وبذلك يكون عبد الرحمن شكرى ، قد صدر له سبعة دواوين ، وهو لم يتجاوز بعد سن الثالثة والثلاثين !!

بعدها . . توقف عن طبع دواوينه . . لكنه لم يتوقف عن الكتابة والنشر فى الصحف . . فظهرت قصائده ومقالاته ، وأبحاثه ، فى « الأهرام » ، و« السفور » و« عكاظ » و« الرسالة » و« المقتطف » و «الهلال » ومن حصاد نتاجه النثرى فى الصحف ، صدر له خمسة كتب هى : « الثمرات » و« حديث إبليس » و« الصحائف » و« الاعتراف » و« قصة الحلاق المجنون » . . وجميعها تتضمن أبحاثا ، ودراسات ونقدا يغلب عليها الطابع الفلسفى ، والفكر الجموح المتطور .

ومبلغ علمى – حتى كتابة هذه السطور – أن له خمسة كتب أخرى ، لم تطبع بعد ، وقد نشرت فصولها متفرقة بمجلات الرسالة ، والثقافة ، والهلال ، والمقتطف ، فيما بين عام ١٩٣٦ ، وعام ١٩٥١ . وهذه الكتب على التوالى ، هى « فى الشعر العباسى » و« دراسات نفسية » و« بين القديم والجديد » و« نظرات فى النفس والحياة » و« مقالات فى النقد والأدب » مثلما بلغنى مؤخرا ، أن تلميذه الأديب السكندرى المعروف الأستاذ نقولا يوسف قد قام بجمع أعماله الشعرية الكاملة وتحقيقها ، تمهيدا لطبعها فى مجلد كبير .

●●●

لم يشأ عبد الرحمن شكرى أن يحترف الكتابة . .

ولم يتقاتل على الشهرة والمجد والدعاية . .

ومع ذلك ، كان هدفا لكثير من ألوان النقد الجارح ! وكان أول المحاربين له والحاملين عليه بلا هوادة ، أخلص أصدقائه : « المازنى » و« العقاد » .

قال « المازنى » فيما قال عنه : لقد ولد عبد الرحمن شكرى ميتا !! بينما يقول الرجل : « كنت أتمنى أن أقطف الحياة كلها . . وأن أخرج من الحياة عطرها . . فإن للحياة عطرا كما للزهر عطرا . لقد كنت أتمنى أن أعانق الوجود ، وأن أقبله قبلة ، أسقى بها كل ما فى روحه من الجمال والجلال . . »

وكان فى ذلك أبلغ الرد على صديقيه اللدودين « المازنى » و« العقاد » حين اتهماه بالموت حيا . . وأن الحياة لاتنعكس على وجدانه وروحه . . وبالتالى : على شعره ، وكتاباته !!

●●●

والواقع أن ظروف عبد الرحمن شكرى هى التى امتدت على كثير من قصائده بظلال السواد والتشاؤم . ولم يكن ذلك ناتجا عن مرض فى شاعريته ، وفى نظرته للحياة !

شاعر له آمال وأحلام . . تسلبه الحياة ، هذه الآمال والأحلام . . لابد وأن يقيم لنفسه عالما يهرب إليه . . ولابد أن ينبثق شعره من خلف جدران هذا العالم ، الذى يتنفس فيه أحزان عزلته ! لقد آثر عبد الرحمن شكرى أن يعتزل دنيا الناس . الناس الذين اضطهدوه ، وطعنوه بسهامهم . . آثر أن ينأى عن نواياهم وشرورهم . بالرغم من الأحزان التى كانت تمضغه وحيدا مهزوما فى عزلته ، إلا أنه كان يعتقد أن فى دنيا العزلة مناخا يمكن لأحلامه أن تزدهر فيه ! ! فإذا أراد أن يبرر هذه العزلة فى شعره ، جاء صوته مهيضا ، ناقما ، ممرورا :

تقدمنى فى الناس من لم يجارنى
وأخرنى أن الذكاء يروع
يمر لداتى واحدا إثر واحد
أمامى . . وعيشى فى الهوان يضيع

ومع هذا ، فإن عبد الرحمن شكرى ، لم يكن يرفض النجاح بين قومه وصحبه . بل لقد كان ذلك النجاح غايته وهدفه .. لكنه صدم فى فئة ممن حوله ، تصطنع صفات ووسائل ملتوية للوصول إلى غاياتها .. ولم يكن يؤمن بهذا الأسلوب . وطالما تناول هذه الصفات بالنقد المر اللاذع :

حدِّث الدهر حديثاً صادقا
إنما الناس قطيع من غنمْ
وصفات الذئب طبعٌ فيهمُ
وصفات القردِ والكلب النَّهمْ

●●●

ولو أننا عرضنا إلى الأسلوب الذى حورب به عبد الرحمن شكرى ، لمنحناه العذر فيما ذهبت إليه نظرته للناس على هذا النحو ! !

قبل أن يصدر الجزء الأول من ديوانه عام ١٩٠٩ ، كان صديقا حميما للمازنى . فلما صدر الديوان ، رغب « العقاد » فى أن يتعرف به ، وكان « المازنى » همزة الوصل بينهما . وبذا أصبح الثلاثة ، باقة جميلة للصداقة والأخوة كان « شكرى » أغزر علما وثقافة . . فأتيح للمازنى والعقاد أن يفيدا من ثقافته وعلمه . وقد أعربا عن ذلك فى عدد من المقالات ، كما أسلفنا . .

ثم ، فجأة . . تتحول الصداقة إلى جفوة . والحب إلى كراهية والحفاوة بشعره وشاعريته ، إلى قدح وذم .

ففى عام ١٩٢١ ، إشترك « العقاد » و« المازنى » فى تأليف كتاب « الديوان » ، وغايته تحطيم الشاعرين « أحمد شوقى » و« عبد الرحمن شكرى » .

فأخذ « العقاد » على عاتقه تحطيم شوقى . . وتكفل المازنى بتحطيم شكرى .

وهكذا وجد عبد الرحمن شكرى نفسه مضطرا إلى أن يرد على الإهانة بالمثل . . فذكر فى خاتمة الجزء الخامس من ديوانه « الخطرات » عدداً من قصائد المازنى ، ومقالاته المسروقة من شعراء وأدباء أوروبيين ، ذكر أسماءهم . فلفت بذلك أنظار القراء ، الذين أخذوا بدورهم ينبشون عن سرقات أخرى ، واجهوا بها « المازنى » ، حتى اضطر فى النهاية إلى الاعتراف بها قائلا : « إننى أقرأ . . ثم أنسى ما أقرأ . . وأكتب فلا أحس أننى أسرق !! » .

●●●

توفى عبد الرحمن شكرى ، فى الخامس عشر من شهر ديسمبر عام ١٩٥٨ . جاءته اللحظة التى انتهت عندها آلامه ، وتوقفت به رحلة العذاب إلى الأبد ، بعد أن عاناها اثنتين وسبعين عاما .

بقى أن نعرف ، أن عبد الرحمن شكرى لم يتزوج طوال حياته . . فقد اتخذ من شعره ، ومرضه ، وعزلته . . خليلا . . وزوجة . . ورفيقا !

« فبراير ١٩٥٩ »

● أحمد رامى ● صلاح طاهر ● نجيب محفوظ ●

زكى طليمات ● يوسف وهبى

أمينة السعيد ● رتيبة الحفنى ● نزار قبانى ●

صلاح ابو سيف ● عبد الرحمن شكرى ●

فيروز ● محمد عبد الحليم عبد الله ●

● محمد لطيف ● محمد على كلاى ●

محمد عبد الحليم عبد الله

كان آخر لقاء لى مع الكاتب الروائى الصديق محمد عبد الحليم عبد الله . . ظهر يوم الأحد : أول فبراير من عام ١٩٧٠ ! كان ذلك فى القطار « المجرى » الذى يغادر مدينة « دمنهور » فى الواحدة والنصف تماما . وكنا ـ هو ، والشاعر فتحى سعيد ، وأنا ـ عائدين إلى القاهرة ، بعد أن أمضينا ليلة الأمس فى لقاء حميم مع أدباء ، وشعراء ، وكتاب القصة فى محافظة البحيرة . وهى المحافظة التى ولد فى قراها ثلاثتنا، ونشأنا . . وتعلمنا فى مدارسها . .

●●●

قبيل ابتداء الندوة بالأمس ، قال لى محمد عبد الحليم عبد الله :

ـ المفروض أن نستمع أكثر مما تقول ، فهذه فرصة نتعرف فيها على الأجيال الجديدة من مواهب أبناء بلدنا . وضغط على كلمة « بلدنا » بطريقة جعلتنى أشعر أن لحمى يلتصق بلحم هذه الأمسية فى مدينة غادرتها منذ خمسة عشر عاما . لكن القاهرة على جبروتها ، لم تستطع أن تلتهم جذورها فينا !

وبدأت الندوة . .

لم يكن تواضعا ، ولا تكلفا . .

لكنها طبيعته الإنسانية . . تلك التى تذيب « مابين » أدباء يتلمسون طريقهم فى ظلمة الأقاليم ، بعيدا عن أى بصيص من النور . . وبين كاتب كبير يتلألأ اسمه على واجهة الضوء !

بدأت الندوة بلا ذلك الحاجز . .

ووجدتنى أتسلل بذاكرتى من زحام اللحظة . . عائدا بها إلى ما قبل ثمانية عشر عاما . . إلى حيث كنت فى مثل عمر هؤلاء الشباب ، الذين يحدقون فى وجوهنا منبهرين ، محبين ، حالمين !

كنت فى نهاية المرحلة الثانوية . .

وكان محمد عبد الحليم عبد الله ، قد لمع اسمه فجأة .

وكانت رواياته الأولى « لقيطة » و « شجرة اللبلاب » و « بعد الغروب » تختلس منى وقت الراحة والنوم ، بعد انتهائى من مراجعة دروس اليوم . وكان هو يزور قريته « كفر بولين » فى مواعيد منتظمة ، فلا يذهب إليها من القاهرة رأسا ، عن طريق خط « المناشى » ، الذى يهىء له وصولا أسرع . لكنه يأتى إلى

« دمنهور » عاصمة قريته ، ومهد دراسته الأولى . فيجلس على « مقهى » معروف فى ميدان المحطة وقتا ، يتناول خلاله كوب الشاى ، ويستطلع المكان ، كأنه يستدعى ذكرياته الأولى . ثم ينهض متجها إلى موقف سيارات الأجرة الرابضة فى الميدان ، ليركب إحداها مع بقية الراكبين الذاهبين إلى قريته « كفر بولين » !

فى معظم تلك الزيارات ، التى كانت الصحف القاهرية ، تنشر أخبارها مسبقا فى صفحات « المجتمع » ، كنت « أزوغ » من المدرسة ، لأرابط فى المقهى إياه أجلس قريبا من « الترابيزة » التى يجلس عليها . أطالعه فقط ، لأقيم بخيالى جسراً بين ما يكتبه ، وبين ملامح هذا الفلاح الذى يجسد لى خضرة الحقول وسمرة الفلاحين ، وخفايا العلاقات الإنسانية فى القرية ، يجسدها لى بأسلوب يحمل المزيجين معا : الخضرة ، والسمرة !

من منا نحن جيل الثلاثينات لم تسهده قصص الحب فى روايات عبد الحليم عبد الله ؟ ومن منا لم يغره أسلوبه الشعرى ، وصوره الملونة ، بتقليدهما فى رسالة غرامية إلى حبيبته فى الخيال ؟ !

●●●

فى الندوة . . تحول عبد الحليم عبد الله ـ الذى ابتلع وجبته من الأدوية قبل أن يغادر الفندق ـ إلى شعلة من الوهج ، والحضور ـ ينصت إلى قصائد وقصص الشبان ، كأنه يحفظها . ويدون ملاحظاته على ما يسمع كأنه مسئول ـ وإلى الأبد ـ عن مستقبل هؤلاء الشبان ! فى تلك الليلة ، التى يحزننى أنها لن تتكرر فى صحبته ، كان قد استجمع كل الخيوط بين أصابع عقله ، وعواطفه ، وراح يتحدث إلى الشباب ، بمثل ما يتحدث فلاح مصرى إلى أرض خصبة . . يناجيها ، بسيطا ، وموضوعيا ، ومحبها ، ومليئا بالتفاؤل ، والثقة .

فلما انتهت الندوة فى حوالى الثانية صباحا . . حلمت ، وحلم الشعراء والقاصون أن يكمل السهرة معنا إلى الصباح . لكن وجبة الأدوية التى حان موعدها فى الفندق ، حرمته ـ كما قال معتذرا ـ من الاستمتاع ببقية هذه الأمسية .

ولم يكن فى حساب الذين عشقوه أنهم حرموا من بقايا آخر لقاء معه . . إلى الأبد ! !

●●●

فى القطار المجرى . .

أدرنا مقاعدنا وجها لوجه .

خلع معطفه ، وشبَّ بقامته ليضعه فوق الرف المعد لذلك . فلما استقر فى مقعده ، راح مبتهجا ، يستعيد متعة هذا اللقاء بيننا ، وبين جيل الشبان الأدباء

فى محافظتنا . كان لايزال مستدفئاً بمشاعر اللقاء الذى عشناه بالأمس ، فامتدت الندوة إلى جلسة القطار . وثب إليها الشعر ، والحديث عنه وعن القصة ، والرواية . . والذكريات أيضا . وكم كانت ذكرياته رقيقة . . ونقية .. وعذبة !

فى رحلة القطار هذه ـ الأخيرة ـ قلت له :

● أنت تكتب الرواية بالشعر . ونحن نعرف أن غالبية كبار الروائيين فى العالم ، بدءوا حياتهم شعراء . . ثم اتجهوا إلى كتابة الرواية ، فبرعوا فيها ، وعرفوا بها .

قال : لقد حاولت أن أكتب الشعر فى بداية حياتى . لكن البحور والقوافى أرهقتنى . . أو بالتحديد : خذلتنى !

« وهو يشير إلى قامته القصيرة بعض الشىء . . ضحك ضحكته الصافية » قائلا :

ـ وأنا كما ترى ، لا أصلح لإجادة السباحة فى البحور !

●●●

فى القاهرة . . .

لم ينس عبد الحليم عبد الله ذكريات ودفء تلك الأمسية . كان يستعيد ما سمعناه من الشعر ، والقصص ، والموسيقى ، وما شاهدناه من العرض المسرحى ، ولوحات الفنانين التشكيليين . . ويؤكد إحساسه المنبهر بالمجيدين من أصحاب هذه الفنون ، ويبارك جهودهم ، ويحلم معهم ، ولهم .

فى آخر حديث بالتليفون ـ وكان ذلك قبل وفاته بأسبوع ـ قال لى :

ـ وأنا فى طريقى إلى « كفر بولين » فى الأسبوع القادم . . سألتقى بمحافظ البحيرة ، لكى أتفق معه على إقامة ندوة دورية فى دمنهور يجب أن نزيل هذا الحاجز الوهمى بيننا نحن المقيمين فى القاهرة ، وبين إخوتنا وأبنائنا المقيمين هناك . هذا تجديد لشبابنا معا . . نحن ، وهم . . والأدب .

قلت ، وأنا أستعير ضحكته الصافية :

● أنت تتحدث كعجوز !

قال :

ـ إذا كان الحنين إلى الوطن الأول ينهمر لدينا فى سن الشيخوخة ، فأنا عجوز منذ طفولتى !

قلت مداعبا :

● وإذا كانت « الحكمة » تقترن عادة بالشيخوخة ؟

قال ، وكأنه قبض على فحولة الأمل فى داخله :

ـ أكون مازلت فى سن الشباب . . بل فى عمر الصبا . لأن الطريق إلى بلوغ الحكمة طويل .

●●●

مازلت أسترجع تفاصيل تلك المكالمات الهاتفية ، التى كانت تبهج روحى ، وتسند رأسى على وسائد قلبه الطيب . قال لى ذات مرة ، يستحثنى على الكتابة ، ويحبب إلىّ الانفلات من أظافر العمل الصحفى :

ـ العمل الفنى كالمرأة . . يستسلم بالاهتمام ، والمداعبة .

وأردف ، موضحا :

ـ على الفنان أن يجد الوقت ، لكى يداعب مشروعه الفنى ، حتى يسيطر عليه .

وعندما أوشكت المكالمة على الانتهاء ، قال عبارة إعتدتها فى محادثاتنا الأخيرة :

ـ لا تنس أن تسأل علىَّ ! !

●●●

قبل النهاية بثلاثة أيام . . فى العاشرة مساء . . إتصلت بمنزله تليفونيا . . لم يجبنى أحد ! !

●●●

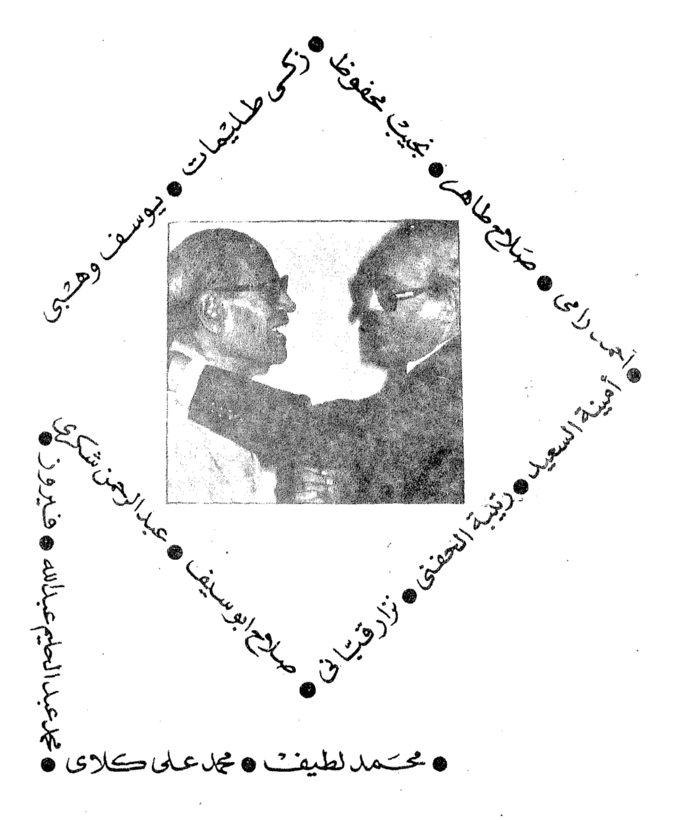
صباح الثلاثاء ٣٠ يونيه ١٩٧٠ :

وجدت على مكتبى سطوراً تنعى إلىّ وفاة محمد عبد الحليم عبد الله . . وفى مدينة دمنهور ، حيث كان يتزود منها فى كل رحلة الى قريته ! فى هذه المرة أودعها روحه إلى الأبد !

وتلاشى الحاجز الوهمى تماما ـ ليس فقط بين وطنه الأول . . والقاهرة ـ وإنما بينه ، وبين الحياة !

وفقدت الرواية العربية شاعراً ، لم تخنقه القوافى والبحور . وفقدنا نحن إنسانا إلى آخر لحظة من عمره ، وصديقا لا يتكرر كثيراً !

« **يوليو ١٩٧٠** »


زكى طليمات
يوسف وهبى
نجيب محفوظ
صلاح طاهر
أحمد رامى
أمينة السعيد
زينبة الحفنى
نزار قبانى
صلاح ابو سيف
عبدالرحمن شكرى
فيروز
محمد عبدالحليم عبدالله
محمد لطيف
محمد على كلاى

نجيب محفوظ

الخميس ١٣ أكتوبر ١٩٨٨ ، هو التاريخ الموافق حصول الكاتب الروائى نجيب محفوظ على جائزة « نوبل » فى الأدب ، لعام ١٩٨٨ .

فى تمام الثانية بعد ظهر ذلك اليوم ـ الواحدة ظهرا بتوقيت استوكهولم ـ كان نجيب محفوظ فى قيلولته اليومية المعتادة ، قد تناول غذاءه طبقا من الخضار المسلوق ، واتجه الى غرفة نومه المطلة على شاطىء النيل ، فى ابتهاجة الجسد الضامر قد تهيأ إلى ساعتى نومه فى مثل هذا الوقت من كل ظهيرة .

فى هذا الوقت تحديدا . . كانت الساعة الذهبية الكبيرة فى القاعة الرئيسية ، بالأكاديمية السويدية فى استوكهولم ، قد دقت دقتها الواحدة ظهرا ، حين خرج الناقد « ستور ألين » سكرتير لجنة جائزة الأدب فى الأكاديمية السويدية ، ليقرأ على الصحفيين ، والمراسلين ، والمصورين ، من ورقة فى يده ، قرار اللجنة بمنح جائزة « نوبل » فى الأدب لعام ١٩٨٨ ، للكاتب والأديب المصرى نجيب محفوظ ، وذلك من بين مائة وخمسين أديبا وكاتبا عالميا ، كانوا مرشحين لجائزة هذا العام !

●●●

فى إغفاءة مابعد الظهيرة . . كان نجيب محفوظ مازال مستكنا فى زورق الجسد المسترخى ، مستجماً من وعثاء الطريق الذى قطعه سبعة وسبعين عاما بالطول والعرض والعمق والتفرس فى وجوه الواقع اليومى للحياه والناس ، وإراقة المداد ، وتسويد آلاف الصفحات ، وعشرات الكتب ، وإنهاض الجسور بين عوالمه الراوئية المترامية ، وبين ملايين القراء من كل جنس ، ولون ، ولغة !

فى مساحة البيت الصغير ، كان الهدوء مستيقظا ككائن حى من الصمت والسكينة والإرهاف ، . . حين دق جرس الهاتف على غير العادة فى هذا الوقت . . وحين هرعت اليه ربة البيت يدق قلبها توجساً من مكالمة تليفونية فى غير موعدها . لكن السيدة « عطية الله إبراهيم » ماإن أنصتت إلى المتحدث على الطرف الآخر ، يبلغها خبر الجائزة الذى طيرته وكالات الأنباء العالمية فوراً ، حتى علا وجيب قلبها بفرحة غامرة مباغتة ، لايمكن وصفها ! وقفزت بها المفاجأة إلى غرفة زوجها ، توقظه من النوم هذه المرة ، دون حذر من تقاليد النظام الصارم الذى فرضه الكاتب المنضبط على حياته اليومية !

ولم يصدق نجيب محفوظ الخبر !

بين النوم واليقظة ، لاحت له المفاجأة ، مداعبة من أحد أصدقائه . أو أنها كذبة من أكاذيب أبريل ، وإن كنا فى شهر أكتوبر. وهكذا ، رجا نجيب محفوظ زوجته أن تتركه ، ليكمل نومه !!

غير أن نجيب محفوظ ، لم ينم . ولم ينهض من السرير أيضا !

كان الحدث الكبير المفاجىء قد اتخذ من ساحة الفضاء الكونى رحلته ، طائرا فى كل اتجاه عبر وسائل البرق ، والأقمار الصناعية ، وأجهزة التليفونات والتيكرز ، والفاكس ، وآلات الطباعة ، وواجهات الصحف العالمية . . و . . تداخل رنين التليفون فى منزل نجيب محفوظ مع رنين جرس الباب الخارجى ، حين هرعت اليه ربة البيت مرة أخرى ، وحين فتح الباب ، وأطل من ورائه وجه سفير السويد بالقاهرة « لارس أولوف بريليوث » ، وحين غادر نجيب محفوظ ـ فى هذه اللحظة ـ سريره ، ليستقبله بالبيجاما . والروب دى شامبر .

لقد جاء السفير السويدى ليبلغه تهانى شعب السويد وحكومته ، بفوزه بجائزة نوبل !

عندئذ فقط ، يتيقن نجيب محفوظ من صحة المفاجأة .
ثم . . انهمر الزحام . .

من وراء السفير السويدى ، تدفقت أفواج الإعلاميين بوسائل الرصد المختلفة.كاميرات التليفزيون العالمية والمحلية.عدسات المصورين من كل أنحاء الدنيا ، ومن الداخل.صحفيون ، ومراسلون ، ومندوبون من وكالات الأنباء بكل لغات العالم . برقيات ، وباقات ورود ، ورنين مكالمات هاتفية يطلب أصحابها مواعيد عاجلة ، ودور نشر عالمية ترجو الموافقة على إدارة مطابعها بكتب نجيب محفوظ . . و . . . الرئيس محمد حسنى مبارك على التليفون ، يهنىء نجيب محفوظ ، والدكتور عاطف صدقى رئيس الوزراء فى بيت نجيب محفوظ للتهنئة بنفسه . رؤساء دول العالم ، ووزراء ثقافتها ، والدوائر الأدبية فيها ، يبرقون التهنئة الى أول أديب عربى ، يحصل على جائزة نوبل العالمية . ونجيب محفوظ وسط هذا الخضم المبتهج ، يبث روحه المرح فى جو المكان . . يتقبل تهانى الجميع ، ويرد على التليفونات ، ويستقبل القادمين ، ويجيب على أسئلة الجميع . كل الأسئلة التى تخطر والتى لاتخطر على البال . . أسئلة تحاكم . . وأسئلة تحاور . . وأخرى تبحث فى جوهر الأمور . . أجاب عليها جميعا . . دون تكبد . . ودون تكلف . . بالبساطة والعمق معا . . باللهجة المصرية حينا . . والفصحى حينا آخر . . يميل اليك بأذنه القريبة منك ، لأن قدرته على السمع ضعفت فى السنوات الأخيرة ، فتشعر أنه يوليك خصوصية الانصات الى شىء هام يخصك أنت . فإذا جاء دوره فى الحديث ، أشرق صوته من طبقة القرار ببحة لها رنين ، ولها دفء الينابيع التى صدرت منها : قلبه ، وعقله ، وبساطته . يكرر جزءًا من سؤالك ـ أو كله ـ فى بعض الأحيان ، لكى يستبصر مكامن الإجابة ، فتدرك أن ذاكرة نجيب محفوظ من فصيلة المرايا الصافية ، تنعكس عليها صور الكلمات، والوجوه والأشياء . . لايعانى استرجاعها ، لأنه يبصرها بعينيه !

هذه أول مرة فيما أعرف ، يخرج فيها نجيب محفوظ عن صمته ، حين لايكون أمام الأوراق التى يودعها أصواته الداخلية ، فى مواعيد ثابتة ، ومنضبطة فى كل يوم ، منذ أن صارت الكتابة عشقه الأول ، وأسلوب حياته اليومية !!

●●●

أتذكر الآن لقائى الأول بنجيب محفوظ .

كان ذلك فى عام ١٩٥٧ :.

كنت فى بداية التحاقى بالعمل الصحفى ، فى مجالات الأدب .

وكان نجيب محفوظ فى عامه السادس والأربعين ، يقيم ندوته الأسبوعية فى كازينو « أوبرا » .

كنا نتحلق حوله طلاب أدب ومعرفة ، فى حضرة الأستاذ الذى خرج على جماهير القراء ، وكبار الكتاب معا فى ذلك الحين ، بثلاثيته الرائعة.ولابد أننا نحن المتحلقين حوله من الشباب ـ وكنا فى نشوة الانبهار بقراءة الثلاثية ـ فى ظمأ الى استيعاب هذا العمل الكبير الذى أحدث دويا هائلا فى الساحة الأدبية العربية ، دون أن يتجاسر ناقد على الاقتراب منه ، وتحليله ، والإضاءة على خبايا معماره الفنى المركب . ولابد أننا كنا نتوقع من نجيب محفوظ أن يحدثنا عن هذا العمل الفذ . . كيف قام به . . وعن تجاربه مع الكتابة . . وعن حياته أيضا !

لكن نجيب محفوظ كان يؤثر الصمت !

والأعجب ، أنه كان يسعده أن ينصت إلينا نحن ! ولايمل من ذلك ! كان يوقد فى صدورنا جذوة الحديث عن خواطرنا ، وقراءاتنا ، وأحلامنا ، ومحاولاتنا الأولى فى الكتابة.فإذا تكلم . . فإنما ليسمعنا عبارات التشجيع ، ولكى يزرع الثقة فى نفوسنا تجاه المستقبل !

ولست أذكر فيما بعد ، أن نجيب محفوظ ـ على عادة الكتاب ـ تحدث الى صحيفة من الصحف العديدة . أو أدلى بحديث الى أى من الإذاعات عربية وغير عربية ، أو خرج على المشاهدين من شاشة التليفزيون . حتى عندما بدأت أعماله الروائية تتحول الى عروض فوق خشبة المسرح ، وأفلام على شاشة السينما ، ومسلسلات فى الإذاعة ، وتمثيليات تليفزيونية . . لم يكن يعلق عليها ، أو يبدى رأيا فيما آلت اليه فى أشكالها المختلفة.فإذا أثيرت أمامه الآراء حول بعض أوجه الاختلاف بين النص الروائى ، وبين المعالجة الدرامية . . كان يقول : لقد انتهت مهمتى عند حدود كتابتى العمل الأدبى !

تلك كانت ملاحظاتى على نجيب محفوظ تجاه إيثاره الصمت فى كل الأوقات . وهى فضيلة أدركت آثارها الايجابية فيما بدا من نجيب محفوظ إستغراقا فى عوالمه الروائية الرحبة ، وإنجازاته المتوالية المتتابعة ، التى تستحوذ على اهتمامنا ودهشتنا معا . والتى استطاع بها ان يجعل من كبار كتاب الرواية فى العالم ، قراء لنجيب محفوظ ، وللرواية العربية !

ومن هنا أيضا ، جاءت دهشتى كبيرة ، حين فوجئت منذ أعوام ، على صفحات مجلة « المسيرة » الأدبية البيروتية ، بكاتبنا الكبير نجيب محفوظ ، يدلى بذكرياته الى صديقنا الروائى الموهوب جمال الغيطانى ، والتى صدرت العام الماضى فى كتاب يعتبر واحدا من أهم المراجع التى تكشف عن أسرار العلاقة العضوية بين نجيب محفوظ ، وعالمه الروائى كمبدع ، وكمنشىء للرواية العربية بأصولها الفنية .

لقد تحدث نجيب محفوظ أخيرا .

ولقد أحسن « الغيطانى » صنعا بهذه المبادرة الذكية المحبة ، التى أخرج بها نجيب محفوظ عن صمته ، مثلما أحسن صنعا كذلك ، حين ترك الذكريات تتدفق على لسان نجيب محفوظ دون تدخل أو تعليق ، فاحتفظت بجوهرها كوثيقة شديدة الأهمية ، يستطيع الدارسون أن يجدوا فيها بعض مفاتيح الأبواب المغلقة فى طريقهم الى عوالم نجيب محفوظ .

ومن الطريف أن ألتقط من هذه الوثيقة الهامة ، أسباب حرص نجيب محفوظ على الصمت طوال هذه السنوات .

يقول نجيب محفوظ ، حين يتحدث عن فكرة « الثلاثية » كيف جاءته :

« كنت أقرأ فى كتاب عن أجرومية الرواية.أول ماتعرض له هذا الكتاب . . الرواية التى يسمونها رواية الأجيال ، أو رواية الأزمان التى تعرض أجيالا عديدة متوالية . أعجبنى الشكل . هنا كنت أقرأ عن نوع محدد من الرواية.هنا بدأت محاولة التذكر عما إذا كنت قد قرأت عملا أدبيا من هذا النوع . . لا . . لم أكن قد قرأت .

ماتردد فى داخلى بقوة ، هو أن أكتب رواية من هذا النوع ولكنى ترددت . . مثل هذه الرواية فى حاجة الى تمرين طويل وتفرغ . . فى هذه الأثناء أصدر طه حسين رواية « شجرة البؤس » وجدتها قريبة جدا من هذا النوع أقصد رواية الأجيال . لكنها قصيرة إلى حد ما .

فى هذه الفترة أخطأت خطأ كبيراً لم أكرره فيها بعد أبدا فى حياتى . فى هذه الفترة تحدثت كثيرا عن هذا النوع من الروايات وأفضت فى شرح أفكارى ونيتى فى كتابتها يوما ما . أحد الأدباء الذين استمعوا الى ، ذهب وشرع فى كتابة رواية من هذا النوع . . أى رواية أجيال . . وأصدرها بعد ستة أشهر !!

منذ هذه التجربة ، تعلمت ألا أحكى أى شيء . . أى تفاصيل عن مشروعاتى !

●●●

لكن نجيب محفوظ منذ ظهر الخميس ١٣ أكتوبر ١٩٨٨ ، وهو محاصر تحت شعار الفرحة به فائزا بجائزة نوبل ، بوابل من سباق الصحفيين اليه ، وانقضاضهم على ماكان نظاما دقيقا فى حياته قبل ظهر الخميس المذكور ، وكأننا لم نكن نعرف نجيب محفوظ قبل أن تشير إليه الأكاديمية الملكية السويدية بأصبع الجائزة !!

ولست أدرى ، لماذا لم تفطن وزارتا الثقافة الإعلام ، منذ اللحظة الأولى لإعلان هذا الحدث عالميا ، الى ترتيب الأمر وتنظيمه وإعطائه المظهر الرسمى اللائق ، فتدعوان الى مؤتمر إعلامى كبير يقام على مسرح دار الأوبرا ـ مثلا ـ يفرغ فيه المتسائلون كل ما فى جعبتهم من الأسئلة ، ليجيب عليها الرجل فى جلسة واحدة ، يشاهدها المواطنون العرب جميعا من شاشات التليفزيون العربية ، مبثوثة عبر الأقمار الصناعية ، باعتبار أن الجائزة حدث عربى كبير يخص الأدب العربى كله . ومن ثم يتاح للصحف العربية وغيرها من وسائل الإعلام العالمية ، أن تنقل عن هذا المؤتمر ، مايمكنها من تغطية هذه المناسبة دون تكبد ، ودون ذلك الزحام المتدافع بالمناكب ، وقد بدا فى صورته العشوائية تهافتا ، وضغطا ، وإحراجا لشيخوخة الرجل !!

ولست أدرى لماذا ـ أيضا ـ لم تفطن الصحف فى مصر ، وبالتالى فى الوطن العربى ، الى ان الفائز بجائزة نوبل أديب كبير ، وكان واجبها أن تغطى الحدث بالصيغة الأدبية الملائمة التى تؤدى الى الكشف عن عبقرية نجيب محفوظ الروائية ، فتحشد كبار النقاد فى الوطن العربى لدراسته ، وتفسير أعماله ، وتحليلها ، والإضاءة على جوانب الابداع فيها ، ونشرهاء تعبيرا عن حفاوة موضوعية من جنس الحدث ، وإثراء له من ناحية أخرى !!

لقد ترددت طويلا ، حين خطر لى أن أهنىء نجيب محفوظ شخصيا ، مع أنه يقع على مقربة خمس دقائق من بيتى ، سيراً على القدمين ، فاكتفيت بإرسال برقية أقول فيها : « مبروك للرواية العربية ، بفوز نجيب محفوظ ، أب الرواية العربية » .

وعندما خيل لى أن عاصفة الزحام من حوله قد بدأت تهدأ . . إتصلت بمنزله هاتفيا للاطمئنان عليه ، فأجابتنى الشيدة الفاضلة قرينته بمشاعر أم تفتقد إبنها الوحيد : إننى لا أراه !!

فلما رأت جريدة الأهرام أن تعيد الى بيت نجيب محفوظ هدوءه السابق . . فتحت له مكتب توفيق الحكيم ليستقبل فيه زواره . . وخصصت له « سكرتارية » لضبط مواعيده ، وتنظيم لقاءاته . عندئذ وجدتنى مدفوعا الى أن أرى نجيب محفوظ .

●●●

فى طريقى الى جريدة الأهرام .. قفزت الى ذاكرتى قصة قصيرة لنجيب محفوظ بعنوان « مهر الوظيفة » ، كنت قد قرأتها فى إحدى المجلات الأدبية القديمة ، التى كنا ننبش عنها فوق سور الأزبكية . وهذه القصة لم تصادفنى فيما بعد فى اى من مجموعات نجيب محفوظ القصصية، ربما لأنها من بواكير كتاباته فى الثلاثينيات ، فأغفلها باعتبارها من نتاج المحاولات الأولى .. أو أنه نسيها ، فلم ترصد فى كتبه . إنها فى واقع الأمر قصة جيدة ، تشير الى عناية

نجيب محفوظ منذ اللحظة الأولى ، بالقالب القصصى الناضج ، وباللغة العربية الشفيفة الشاعرية ، ذات الدلالة . فضلا عن رؤيته النافذة المبكرة لدقائق خلايا نسيج المجتمع المصرى فى الثلث الأول من القرن ، وهى تتفاوت فى حدة شروخها بين الثراء والفقر . وبين أصحاب الجاه والمناصب ، فى مواجهة الضائعين المعدمين من فرص الحياة الانسانية.يضاف الى ذلك ، إحساس نجيب محفوظ المبكر بعنصر الزمن كقيمة إنتاجية مهدرة ، تجسدت فى هذه القصة ، فيما آلت اليه من إحباطات ومهانة طموحات الاستاذ « جودة » خريج كلية الحقوق ، المتفوق ، الحالم بحقه الطبيعى فى وظيفة مرموقة.لكنه بسبب فقر اسرته ، وافتقارها الى الجاه والمال ، لايحصل على غير وظيفة كتابية مطمورة ، تهوى بأحلامه الكبيرة الى حضيض الموظف المنسحق الذى يتعجل مرور سنوات عمره ، لكى يحصل على علاوة مقدارها جنيه واحد ، كل خمس سنوات !!

أتصور الآن « نجيب محفوظ » ، الذى تقلب فى عدد من الوظائف العادية سنوات طويلة ، وقد فطن عقب تخرجه من الجامعة الى كون « الوظيفة » مقبرة للموهوبين من أمثاله ، فلم يستسلم لعبوديتها . وفى نفس الوقت لم ينفر منها . بل هو يعترف انه أحبها !! فلقد ضمنت له مرتبه أول كل شهر من ناحية ومن ناحية اخرى أتاحت له مخالطة مختلف النماذج البشرية التى قرأناها فى العديد من أعماله الروائية .

لقد نجح نجيب محفوظ إذن ، فى ان يضع تجاربه الوظيفية فى خدمة الفن وبذلك استطاع ان يقوم بعملية مسح شاملة لكل النماذج البشرية التى صادفته فى الحياة ، والتى تمثل مختلف الشرائح فى المجتمع.وهى مهمة غاية فى الصعوبة ، لو لم يأخذ نجيب محفوظ نفسه ، بذلك الفصل اليومى الباتر بين « الزمن الوظيفى » لديه و « الزمن الإبداعى » فى حياته اليومية منذ ان وهب نفسه للرواية.بدليل اننا لانعرف كثيرا او قليلا عن نجيب محفوظ الذى عمل فى مكتبة الجامعة،وفى وزارة الاوقاف ، وفى مؤسسة السينما ، وفى لجان القراءة بالاذاعة والتليفزيون ، وفى المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب ، وفى مكتب الدكتور ثروت عكاشة ـ مستشارا له حين كان وزيرا للثقافة .

لكننا نعرف فى ذات الوقت ان نجيب محفوظ الروائى ، وكاتب القصة القصيرة كان قد أنجب ١٨ رواية وسبع مجموعات قصص قصيرة قبل ان يبلغ سن المعاش فى عام ١٩٧١ .

وكان من الطبيعى أن أتساءل فيما بينى وبين نفسى ما الذى أحدثته الجائزة فى التكوين الصارم لعلاقة نجيب محفوظ بعنصر الزمن لكى يستسلم كل الوقت لهذا الضجيج من حوله ، وهذا الزحام غير المتسق ؟ !

هل أعطى نفسه أجازة إضطرارية من الصمت ، والكتابة ، وضوابط النظام اليومى لحياته ؟

هل هى أحاسيس البهجة القصوى ، تلك التى تجعلنا نجهش مابداخلنا من مدخرات عاطفية وروحية وعقلية كامنة ، أغلقنا عليها طويلا ، حين لم تكن هناك أسباب ضرورية للإجهاش والتخفف من الضوابط الارادية ، والخروج من ذواتنا الى ذوات الآخرين ، بكل هذا العناق الإنسانى الحار ؟ !

أم هو الغزو الإعلامى المتسابق ، قد كثف هجومه المباغت فى مناسبة يصبح الحديث فيها عن مشاعر البهجة الطارئة ، معادلا للتعبير الضمنى عن مشاق الرحلة ، وقد تجرد صاحبها من العناء ، مستعذبا إقصاء الأشواك التى مشى عليها زمنا لايحسب فقط بعقارب السنين !!

●●●

فى الصالة المؤدية الى مكتب توفيق الحكيم ، حيث يجلس نجيب محفوظ ـ كانت المقاعد مزروعه بأجساد المنتظرين الذين جاءوا بمواعيد للقائه . قلقون كأنهم فى عيادة طبيب ينتظر كل منهم دوره ، حتى كدت أن أعتذر لهم وأنا أقترب من مقبض الباب لكى أفتحه . وحسبت أننى لن أنجو من التعليق ، فدلفت الى الغرفة ، لأجد « نجيب محفوظ » مستسلماً على مقعده الى اثنين من « المذيعين » يتناوبه كل منهما بالأسئلة .

مرة أخرى ، وجدتنى فى الحالة التى أشفق فيها من الجهد المضنى الذى يبذله نجيب محفوظ منذ ستة أيام ، فانتحيت مقعدا بجوار طاولة توفيق الحكيم ، ورحت أرقب وجهه المجهد ، وصوته الذى اتضحت فيه البحة أكثر من ذى قبل ، من طول ماأرهق الكلام أحباله الصوتية .

والمذيعان ينصرفان ، ظل نجيب محفوظ واقفا ، يتهيأ لمصافحتى إياه ، فخطوت اليه .. أعانقه . وأحسست لثوان أن رأس نجيب محفوظ قد استكان الى الراحة على كتفى برهة !

قلت ونحن مازلنا واقفين .

● أعرف أنك سئلت كثيرا .. وأجبت كثيرا . ولست أريد أن أرهقك بالمزيد من الأسئلة . إننى هنا للتهنئة ، وللاطمئنان عليك .. ولكى أبلغك أيضا تهانى الزملاء فى مجلتنا .

قال ، وقد استراح التعب فى صوته :

ـ أرجو أن تبلغ الزملاء جميعا شكرى وامتنانى وبالمناسبة .. عدد أكتوبر من المجلة لم يصلنى .

قلت : العدد فى الطريق اليك . وقصتك « خيال العاشق » سوف تنشر فى عدد نوفمبر . لأنها وصلتنا بعد انتهائنا من العدد الحالى .

قال : أعرف . لماذا لاتجلس ؟

قلت : إذا جلست فسوف يتدفق الحديث بيننا .. وأنت مرهق .

قال : إذن .. فلتجلس .

قلت : هى فرصة على كل حال ، لكى أنصت اليك حول بعض الخواطر التى عنّت لى ، وأنا أتابع صدى حصولك على الجائزة .

قال : مثل ؟

قلت : أعرف كتابا أرقتهم أحلام اليقظة بجائزة نوبل . وفى تصريحاتك بعد حصولك على الجائزة قلت إنها كانت بعيدة عن دائرة أحلامك وتوقعاتك .

فهل نسمى ذلك زهدا . أم تواضعا . أم هو موقف نابع من فقدان الثقة لديك فى نزاهة القائمين على أمر الجائزة ؟

أم ماذا بالضبط ؟ !

قال نجيب محفوظ :

ـ الواقع أنه لم يكن عندى أدنى علم بأنى مرشح للجائزة . أى كنت من المتفرجين بطبيعة الحال . وكنت أسمع أن فلانا ، وفلانا ، وفلانا من الكتاب العرب مرشحون للجائزة . فلما كنا نقعد فى مجالسنا نتساءل : من ياترى سيحصل على الجائزة من هؤلاء ؟ نعم .. كنت أعرف أننى خارج اللعبة . خارج الصورة . ولهذا لم أشغل بالتفكير فى الجائزة . يعنى لا هو زهد فيها .. ولاهو عدم ثقة . ولا هو أى شيء آخر . كل ما هنالك أننى لم أكن أعرف أننى مرشح لها . أنا لم أعلم من الذى رشحنى إلا صباح اليوم من جريدة الأخبار . فقد نشرت تقول إن الدوائر الفرنسية هى التى رشحتنى . يعنى ناس من فرنسا .

قلت ، وقد استثيرت الذاكرة بالعبارة الأخيرة فى كلام نجيب محفوظ :

● منذ ثلاثة أشهر ، أجرت مجلتنا حوارا مع المستشرق الفرنسى « أندريه مايكل » . وفى هذا الحوار قال « مايكل » إنه رشحك رسميا لنيل جائزة نوبل منذ سنوات . لكن حدث شيء من التجاهل ، فلم يعلن إسم نجيب محفوظ فائزا بها . وفى تقدير المستشرق الفرنسى أن هذه فضيحة كبرى . فنجيب محفوظ ـ هكذا قال ـ أديب عالمى ، وليس أديبا مجيدا على مستوى مصر والعالم العربى فقط . فما تفسيرك الشخصى لتأخر حصولك على الجائزة ؟

قال نجيب محفوظ :

ـ أولا .. أنا لست متأكدا من أن الجائزة جاءت متأخرة . ليه .: لأنى لا أعرف بالضبط ماهى حيثيات إعطاء الجائزة لمن سبقونى.لماذا لا تقول إن اللجنة التى تعطى الجائزة قد رأت مِن وجهة نظرها ، أن تتوجنى بهذه الجائزة هذا العام ؟ إننى أستبعد أن تكون اللجنة قد رأت أننى أستحق الجائزة منذ سنوات ، ثم حجبتها عنى طوال هذه السنوات .

● هل كنت تفضل أن تحصل على جائزة نوبل قبل عشرين عاما ؟

قال نجيب محفوظ بنبرة الإحساس بالرضا :

ـ لا .. إننى أشعر أن الجائزة جاءت فى التوقيت المناسب . لماذا ؟ لأن الأمة العربية كانت فى حاجة إلى فرحة كبيرة تنبع من قلبها فى هذه الأيام . فالحمد لله أن الجائزة جاءت فى هذا التوقيت .

● دعنا نفترض أنها جاءت قبل عشرين عاما .

قال : كنت سأستفيد منها وحدى .

قلت : وهل كان ذلك سيؤثر على كمّ وكيف إنتاجك بما يختلف عما هو عليه الآن ؟

قال : الجوائز مشجعة . وأعتقد أن كل تشجيع لابد أن يكون له أثره . يعنى مثلا .. حين تكون فى سباق للجرى .. وهناك ناس واقفون يهللون ويبعثون فيك الحماس .. ذلك يعطيك قوة .

وأعتقد أن الجائزة كانت ستفعل ذلك .

● هل لى أن أعرف ، مَنْ مِنَ الروائيين الفائزين بجائزة نوبل عل مدى سبعة وثمانين عاما .. أقربهم الى روح ومزاج واهتمام نجيب محفوظ ؟

قال نجيب محفوظ ضاحكا :

ـ أنا الآن فى حاجة الى قائمة بأسماء الفائزين كلهم .. ومع ذلك فإنى أذكر منهم كتابا أحببتهم جدا فى مطلع شبابى ، مثل أناتول فرانس ، وبرنارد شو ، وتوماس مان . لكن هناك كاتب أحببته أكثر من كل هؤلاء ، ومع ذلك لم يحصل على جائزة نوبل . إنه شيخ شيوخ الأدب : تولستوى .

قلت : أريد أن أتساءل معك حول الدافع الحقيقى وراء وصية الكيميائى السويدى ألفريد نوبل بوقف ثروته لتأسيس جائزة نوبل :

هل هى تكفير عن شعوره بالذنب نتيجة لتوصله إلى اختراع مادة الديناميت باعتبارها عنصرا من عناصر الدمار ، فى عالم ينحو إلى استعمال القوة ؟

أم أنها تعبير عن رغبة « نوبل » فى أن يظل اسمه محفورا فى ذاكرة الأجيال إلى ماشاء الله ؟

أم هى فى حقيقة الأمر حافز وإغراء لاجتهادات العقل فى مجالات العلوم التطبيقية والنظرية ، من أجل خدمة الحياة والإنسان ؟ وهل ترى أن هذه الجائزة قد حققت دوافعها فى أىٍّ من هذه الأهداف ؟

قال نجيب محفوظ :

ـأعتقد أن الرجل كان يريد التكفير عن شعوره بالإثم . لأنه ليس من الهين على إنسان حساس ، وعالم ، قام بتقديم هذه الهدية « المهببة » من البارود إلى العالم ، ولايفكر فى التكفير عنها إلا اذا كان من فصيلة الوحوش !

أنا لاأستبعد هذا ..

ولذلك ، كان من شروط الموضوعات الأدبية المرشحة للجائزة . أن تكون إنسانية . يعنى أن تكون مع السلام بطريقة ما . وأعتقد أنها حققت ذلك فى كثير مما أعرفه . يعنى الأدباء الذين أشرت إليهم ، وقد حصلوا على جائزة نوبل ، كانوا على مستوى رفيع من الفن والفكر ، ومن محبى أن يسود السلام العالم . أمابقية الأسماء التى لاأتذكر أصحابها الان .. فأعتقد أنهم غالبا من هذا النوع . إننى لاأتصور أن تعطى الجائزة لكاتب يدعو إلى الحروب ، أو ينادى باستعباد البشر !

●إذن ، أنت لست مع الشبهات التى تحوم حول هذه الجائزة ؟

ـالذين يتهمون جائزة نوبل أحيانا .. يتهمونها وفى قناعتهم أنها تتأثر بالسياسة .. نعم .. هذا هو الاتهام ..لم يقل أحد إنها ضد سلامة البشرية . هناك كاتبان من الاتحاد السوفيتى ، إنشقا على الاتحاد السوفيتى وحصلا على الجائزة .. هل تتذكر ؟

●نعم .. باسترناك الذى حصل عليها عام ١٩٥٨ والكسندر سولجنستين ، وقد حصل عليها عام ١٩٧٠

ـ هذا يدعونى إلى التساؤل :

هل الجائزة تتأثر بالسياسة حقا ؟

فإذا تأملت موقف هذين الكاتبين وهما ينشقان على الشيوعية ، أدركت أنهما اقتربا من مبادىء الجائزة ،لأن الجائزة تخص الحضارة الغربية .

والغربيون يرون أن الشيوعية هى تصفية للمبادىء الغربية .

لذلك ، فهى عندما تعطى لهذين الكاتبين ، وهذا هو موقفهما ، فذلك فى

حقيقة الأمر ، لأنهما انضما أو تعاطفا مع مبادىء الغرب ، وليس كيداً في الاتحاد السوفيتى .

قلت : الآن وقد حصلت على جائزة نوبل .. كيف ترى الحياة .. والناس .. ونجيب محفوظ نفسه ؟

قال : الحياة أكبر من جائزة نوبل. إنها نعمة كبرى ، وتجربة مطروحة للإنسان لكى يمارس من خلالها كل ماأعطاه الله من مواهب لتعمير الأرض . هذه هى الحياة قبل الآن .. وبعد الآن

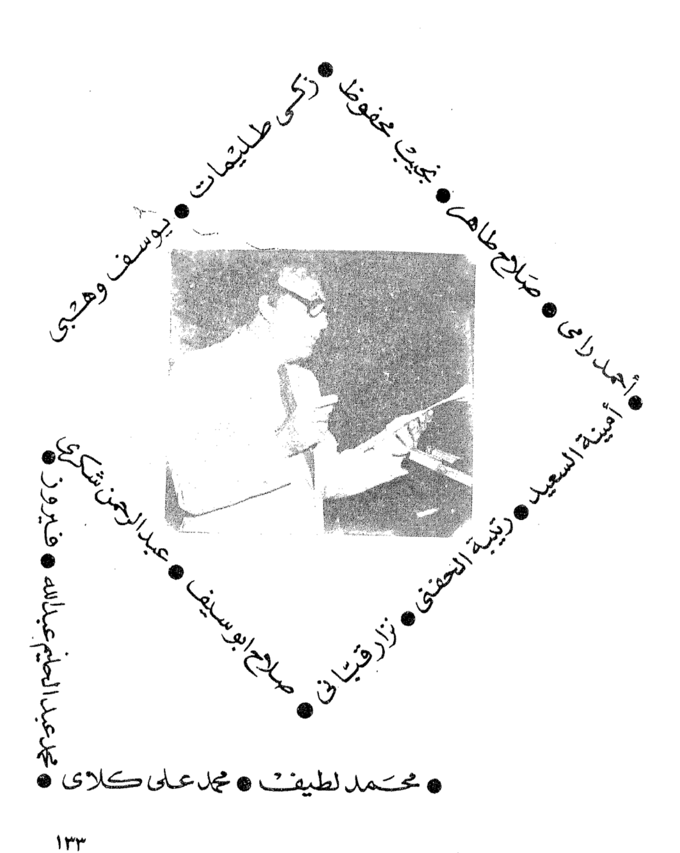
الناس كذلك .. لاشك أنهم فى جملتهم وراء كل مايصدر عنهم . وبالرغم من السلبيات الكثيرة التى لاحصر لها ، فإننا بالنظرة الطويلة المتعمقة نجد أنهم تقدموا كثيرا . يعنى ، هم ماضون فى الطريق بالرغم من كل شىء .

أما عنى .. فإننى أرى أن تعبى الطويل قد أكرمه الله بهذه الجائزة . فلله الحمد والشكر .

●●●

من نافذة الطائرة ، عائدة بى إلى مدينة « الرياض » لاحت لى « القاهرة » بمآذنها ، وقباب مساجدها ، وذوائب عمائرها ، وشرايين شوارعها ، وحواريها ، وأزقتها ، تلك المتفجرة حتى الحافة بنبض الحياة ، وتدفقها ، وفيضانها البشرى العارم .. لاحت لى وقد انسكب فى عروقها ومسامها زمن نجيب محفوظ قطرة ، قطرة .. منذ أن هام بها موضوعا ، وهمّت به مبدعا . فتوحدا عاشقين برح بهما الوجد ، واستفاقا فجأة على فرحة العالم ، يبارك هذا العشق بين كاتب .. ومدينة !

« اكتوبر ١٩٨٨ »


زكى طليمات
نجيب محفوظ
يوسف وهبى
صلاح طاهر
أحمد رامى
أمينة السعيد
رتيبة الحفنى
نزار قبانى
عبدالرحمن شكرى
صلاح ابوسيف
فيروز
محمد عبدالحليم عبدالله
محمد على كلاى
محمد لطيف

نزار قبانى

من فوق مرتفعات واحد وخمسين عاما .. وقف يستعيد ملامح الرحلة . أطلق بصره وذاكرته عيونا على جسد السنوات التى تركها وراءه . غاص بها فى كل المسام . إنه يبحث عن ذاته تحت الجلد . يستعيدها . يجسدها ، ويرصدها قبل أن يجتهد الآخرون فى رصدها .

لقد قرر نزار قبانى أن يرسم وجهه بيديه ، إذ لا أحد يستطيع أن يرسم وجهه غيره !

أراد أن يرفع الستار عن نفسه بنفسه ، قبل أن يطرحه النقاد على مكاتبهم ، ليقصوه ويفصلوه على هواهم .

ولأنه لايريد ـ فيما بعد ـ أن يدخل غرفة عمليات النقاد ، ويسلم جسده إلى مباضعهم ، فهو يقرر أن يظهر على المسرح بوجهه الحقيقى ، وأن يتحدث إلى الجمهور بصوته .

.. وهكذا .. من فوق مرتفعات واحد وخمسين عاما ، هى مجمل سنوات عمره فى شهادة الميلاد .. إلتقط نزار بعينيه وذاكرته ، كل دقائق الرحلة . ثم أودعها جميعا كتابه « قصتى مع الشعر » . وهو الكتاب الذى نطالع معا على صفحاته حكاية نزار مع الشعر .

●●●

إن قصة نزار قبانى مع الشعر ، لاتبدأ لديه من تلك اللحظة العذراء الأولى ، لأولى محاولاته البكر ، مع كتابة القصيدة .

إنها تبدأ لديه من زمن قديم .. أقدم من ميلاده نفسه ..

إنها تبدأ من حقيقة مؤداها أن الأمة العربية أمة تتنفس الشعر . فليس غريبا إذن أن يكون نزار شاعراً . بل الغريب ألّا يكون !

وقصة نزار مع الشعر ، تبدأ ـ أيضا ـ منذ اللحظة الأولى لميلاده فى عام ١٩٢٣ ، إذ كان الربيع لحظتها ـ فى شهر آذار ـ يستعد لفتح حقائبه الخضراء . وكانت الطبيعة قد أعلنت ثورتها على الشتاء ، بينما راحت تبث فى روح الحقول ، والأزهار ، والعصافير تأييد تلك الثورة على روتين الأرض !

كانت الطبيعة إذن تنبت شاعراً ، وتعده لـ « الثورة » فى نفس الوقت !

كذلك تبدأ قصة نزار مع الشعر ، من محطات الطفولة.فمن بيت العائلة فى حى « الشاغور » فى دمشق ، طالعت طفولته حركة المقاومة ضد الانتداب الفرنسى ، وهى تمتد من الريف السورى ، حتى مدنه .

وفى ساحة البيت ، أبصرت طفولته وجوه الزعماء السوريين ، وهم يخطبون فى ألوف الناس مطالبين بمقاومة الاحتلال الفرنسى ، ومحرضين الشعب ، لكى يثور من أجل الحرية .

وعند الباب الخارجى لبيت العائلة ، ودعت طفولته أباه ذات ليلة ، بينما الجنود يقتادونه مقبوضا عليه ، إلى معتقل «تدمر » فى الصحراء ، إذ كان أبوه ممن يمولون حركة المقاومة الوطنية .

وفى تلك الليلة إكتشف الطفل « نزار » أن أباه « تاجر الحلوى » ، كان يمتهن إلى جانب صناعة الحلوى .. صناعة الثورة !!

●●●

كان مفروضا إذن ـ وتلك هى البيئة التى نشأ فيها نزار ـ أن يكون شاعراً مقاتلا بالكلمات فى ساحات النضال العربي ، وليس شاعراً مقتولا بلحظ امرأة فى مخادع العشق !!

فلماذا اختار نزار « المرأة » ، بديلا للثورة ؟

لماذا اختارها دفترا يكتب عليه أشعاره ؟

ولماذا احتلت كل تلك المساحة الشاسعة من أوراقه ، ومدَّت ظلها على أيامه ، وشعره ؟ !

هل صحيح أن «نزار » دخل خدع المرأة ولم يخرج منه ، كما قال عنه « العقاد » فى إحدى مقالاته ؟

عن هذه الأسئلة ، يجيب نزار :

ـ « نحن مجتمع خائف من جسد المرأة . ولذلك نتآمر عليه ، فندينه ، ونحكم عليه غيابيا بالإعدام . إننا حتى الآن لم نستطع أن نشفى من فكرة الأنثى ـ العار إن ربط الأنوثة بالعيب والعار جعلنا مجتمعا محروما من الطمأنينة . ينام والسكين تحت وسادته . هذه الخلفية الجاهلية التى تدين الأنوثة بلا محاكمة ، ولا أدلة ولا شهود ، تجر ذيولها على كل قطاعات حياتنا السياسية والاقتصادية والأدبية . ونتيجة لهذه النظرة البوليسية إلى الأنثى ، أصبح شاعر الغزل فى هذه المنطقة مدانا بصورة تلقائية ، ومتهما بخروجه على تقاليد المدينة الفاضلة !! » .

نزار إذن لايفسر لنا ظاهرة اتجاهه إلى المرأة فى شعره . لكنه يدافع عن الاتجاه فقط . غير أن الإحساس لديه بأنه « متهم » يظل يراوده ، ويلح على صوته بكلمات الدفاع :

- « تسعون بالمائة من الأحاديث الصحفية التي تجرى معي ، تطرح ذات السؤال الذى أصبح بالنسبة لى صداعا يوميا لايحتمل : لماذا اخترت المرأة موضوعا لشعرك .. ونسيت الوطن ؟ إن طرح السؤال بهذا الشكل العدوانى ، يدل على أن طارحيه يتصورون أن المرأة عنصر مضاد للوطن ، ومتناقض معه . وبالتالى فإن كل كتابة عنها ، أو أن مجاولة الدخول إلى عالمها ، وكشف الستائر عن أحزانها وعذاباتها ، ومسح التراب المتراكم على وجهها وجسدها عبر ألوف السنين ، يعتبر عملا ضد الوطن » !

فهل حقيقة أنصف نزار المرأة بالدفاع عنها ، وكشف الستائر عن أحزانها ، وعذاباتها ، ومسح التراب المتراكم على وجهها وجسدها عبر ألوف السنين ؟ !! ثم .. من هى تلك المرأة التى وقف نزار بجانبها ، مدافعا عنها؟

هل هى « المرأة العربية » التى تشارك الرجل فى تربية الطفل ، وفى البيت ، وفى المدرسة ، وفى الحقل ، وفى المصنع ، وفى مكاتب العمل ، وفى أحزان هذا الوطن الكبير ؟

إن المرأة التى يرسم نزار جسدها وغرائزها فى شعره ، هى امرأة مصنوعة من التوليب ، والياسمين ، واللوز ، والدانتيل ، وأحمر الشفاه ، والعطر .

فهل هذه هى « المرأة العربية » التى أوقف نزار كل عمره ، وكل شعره ، « مدافعا عنها وعن أحزانها !! » ؟ الواقع أن نزار فى كل ماكتب عن المرأة ، لم يكن معنيا بالدفاع عنها . لم يكن مشغولا بغير ذاته هو .. الذات التي يبدو له صاحبها أطول مايكون قامة وفحولة فى حضرة المرأة الراغبة ، العارية ، الجاثية تحت وطأة الشهوة ، والخنوع ، والاستسلام !

هل كان نزار يقصد شيئا آخر غير أن يفصِّل من جلد النساء عباءة ، وأن يبنى أهرامات من الحلمات؟ وهل كان نزار يقصد شيئا آخر غير إذلال كبرياء المرأة ، والإلقاء بها فى متاهة مجهولة لاتعرف فيها بدايتها من نهايتها :

حاولت حرقى فاحترقت
بنار نفسك فاعذرينى
لاتطلبى دمعى .. أنا
رجل يعيش بلا جفون
وبقيت رغم أناملى

طينا تراكم فوق طين
لاكنت شيئا فى حساب
الذكريات .. ولن تكونى

فهل يسمى نزار ذلك دفاعا عن المرأة ؟ كيف تكون الإهانة إذن ؟ !
ومع هذا .. فإن نزار يبيح لنفسه أن يقول بصوت مرتفع :

ـ « إن الشعر كله إبتداء من أول فاصلة ، حتى آخر نقطة فيه .. هو شعر وطنى ، وأننى مقتنع بوطنيتى هذه » (!!)

●●●

للشاعر أن يقتنع بهذا النوع من « الوطنية » . فهذا حقه . لكن ليس من حقه بالطبع أن يفرض على الناقد والقارىء وصاية هذا النوع من الإقناع .

إن السمة الغالبة فى كتب المذكرات الشخصية ، هى شجاعة الاعتراف والشهادة . وهى بما تحمل من صدق الفنان ومن موضوعيته ومن تتبعه لمؤشرات الرحلة فى حياته .. إنما تقوم عادة بمهمة الضوء النفاذ أمام الناقد . تيسر له مهمة التجوال داخل الغرفات النفسية والفنية للشاعر . لكن « نزار » وهو يحكى قصته مع الشعر .. يتجاهل أهم عناصر المذكرات الشخصية ، وهى الاعتراف والشهادة . بل الأصح والملموس والواضح ، أنه ينطلق فيما يسجل لرحلته الشعرية . من عقدة الشعور بالمرارة من النقاد . ومن الرغبة فى تحدّيهم . ومن عقدة أنه متهم بكونه شاعر المرأة . وبأنه شاعر غير وطنى !

ومن مجموعة هذه العقد .. كان فى ضمير « نزار » أن يضلل النقاد . وأن ينثر حول موقفه هالات من المبالغات غير المبررة ، كى يثبت ـ بالنثر لا بالشعر ـ أنه شاعر يدافع عن المرأة فى « سجن » المجتمع العربى . وأنه ـ بالكلام ، لابالفعل ولا بالشعر ـ شاعر وطنى . وأنه ـ هكذا ـ مقتنع بهذا النوع من الوطنية ! لهذا جاءت أقواله دفاعات .. لا اعترافات !! وهى دفاعات عارية من المنطق .

إن النتائج التى يصل إليها « نزار » فى دفاعاته .. تتناقض تماما مع المقدمات التى يسوقها . إذ أن النتائج هى التى تهمه بالدرجة الأولى !

ولو شئنا أن نقف أمام كل مفارقة وردت فى كتاب « نزار » . . فإننا بذلك نثقل على صفحات هذا الكتاب ، وعلى القارىء معا ، بالتطويل ، والتفنيد ، والتعليق ، والخوض فى البديهيات . يكفى هنا أن أنقل الى القارىء فقرة منفلتة من لسان الشاعر ، حين « يدافع » كذلك عن « لاموضوعية » التناول فى قصته مع الشعر ، اذ يقول :

ـ « كيف يمكنني أن أكون موضوعيا حين أكون أنا الموضوع ؟ وكيف يمكنني أن أحدثكم عن مساحة جرحي ، حين أكون أنا الجرح ؟ » ترى ، أي نوع من « الجروح » ذلك الذي يحاول الشاعر الكبير أن يستدر به عواطف القراء ؟!

●●●

يصف « نزار » قصته مع الشعر ، بأنها غابة من الأشجار المزروعة في داخله ، راقبها وهي تكبر شجرة شجرة.ومن داخل هذه الغابة يحدثنا « نزار » عن أخباره ، وأسفاره ، وقصائده . عن البدايات ، والهوايات ، والصديقات .

والذي يعنينا هو أن ندخل في رأس « نزار » الشاعر.اننا لانتحرى كل ذكرياته . .

لكننا نتحرى ما بداخل ذاكرته من الآراء المتصلة بالشعر وبالشاعر .

يقول نزار : « ليس عندي نظرية لشرح الشعر »

وهو اعتراف يحمد له صدقه وتواضعه . لكنه لايقف ـ كما قلنا ـ عند حدود الاعتراف . إنه في حالة دفاع عن نفسه . ولأنه يترافع من أول الكتاب الى آخره . . فلا بأس من إطلاق الأحكام المتعجلة :

ـ « لو كان عندي نظرية للشعر لما كنت شاعرا

ان المعرفة بما نفعل تعطل الفعل . تماما كما يرتبك الراقص حين يتأمل حركة قدميه » .

. . ولو أننا سلمنا مع نزار بهذا الرأى ، فإننا نصبح مطالبين بأن نشطب من قوائم الشعر، جميع الشعراء الذين صدروا عن نظريات في أشعارهم . ومع ذلك لم يثبت لنا بالدليل الشعرى أن « بايرون » ، و « شيلي » و « شيلر » ، و « كيتس » ، و « بودلير » ، و « رامبو » و « مالارميه » وغيرهم من أصحاب النظريات في الشعر . . أنهم لم يكونوا شعراء ؟!

●●●

ـ « . . في الثانية عشرة من عمرى ، اجتاحتني حيرة لا شبيه لها . من أين أبدأ ؟ كيف أبدأ ؟ كنت اذا اضطجعت في سريرى ، أرفع يدى في الظلام ، وأرسم في الفراغ خطوطا ليس لها نهايات ، وأشكالا لاتعني شيئا . الرسم . . ربما كان قدرى » . كانت تلك مرحلة البداية عند نزار . تعلق بعالم الألوان سنتين أو ثلاثا.لم يكن رساما رديئا . لكنه لم يكن أيضا رساما جيدا . كان الرسم نزوة إذن . فقد كان اللون لاصوت له . إن عالم الأصوات أرحب وأغنى . وهكذا ـ وعمره ١٤ عاما ـ إتجه « نزار » إلى الموسيقى.لكنه ما إن بدأ درسه الثاني أمام مدرس « الصولفيج » ، حتى أحس أنه ـ أى الصولفيج ـ كجدول الجمع والطرح

علم أبله . يستند الى المعادلات والأرقام الحسابية.عندئذ رمى آلته . وسقط فى حيرته من جديد !

فى سن السادسة عشرة . . عثر « نزار » على نفسه كشاعر ونام . فى تلك الليلة من صيف ١٩٣٩ . . شاعراً

●●●

وبمثل ماعانى « نزار » فى بداياته ازمة البحث عن « الفن » الذى يعبر به عن نفسه . . عانى اكتشاف المعادل التعبيرى لما بداخله من أحاسيس وخواطر . فهو لايتردد فى أن يقول ـ فور اكتشاف موهبته كشاعر ـ انه كان يرسم الخطط « لكى يهاجم قطار الشعر المنهوك » .

صحيح ـ هكذا يستطرد نزار ـ أن عشرات من الشعراء الشجعان من أمثال إلياس أبى شبكة ، وبشارة الخورى ، وفوزى المعلوف،وإيليا أبى ماضى ، ونسيب عريضة ورشيد ايوب ، وعمر أبى ريشة وعلى محمود طه . وابراهيم ناجى ـ كانوا قد بدأوا ثورتهم على الشعر قبل أن يكون « نزار » شاعرا ناشئا بعشر سنوات.لكن الظروف التاريخية والاجتماعية والثقافية ـ كما يقول نزار ـ لم تسمح لهم بتنفيذ مخططهم !!

وهكذا حمل « نزار » الشاعر الناشىء حينذاك فى الاربعينات ـ وبمجرد اصدار ديوانه الأول قالت لى السمراء ـ مهمة اعتراض طريق قطار الشعر التقليدى ، ومهاجمته !!

ثم ، لما أصدر ديوانيه الثانى والثالث « أنت لى » و « سامبا » كان قد اتم اختراق قلعة الشعر العربى . وهى قلعة ـ كما يصفها ـ تشبه قلاع القرون الوسطى !!

ولأن « نزار » يعتقد انه شاعر من غير طينة الشعراء .

ولأنه يعتقد كذلك انه شاعر قاد ثورة الشعر ، ولا يزال ، . . فلا بد له أن يعتقد أيضا أن التاريخ قد تحرك ضده فى نفس اللحظة التي نشر فيها مجموعته الشعرية الأولى !

كيف لا يصبح « نزار » و « التاريخ » ندين ؟!

« ويتحرك التاريخيون . . رفضوا الكتاب جملة وتفصيلا رفضوا عنوانه ورفضوا مضمونه ورفضوا حتى لون ورقه ، وصورة غلافه.هاجمونى بشراسة وحش مطعون »

حين انضم « نزار » إلى السلك الدبلوماسى فى أغسطس عام ١٩٤٥ . . كان فى الثانية والعشرين من عمره . أعجبته لعبة السفر ، وبقى مأخوذا بها طيلة عشرين عاما ، اذ هو استقال من السلك الدبلوماسى فى عام ١٩٦٦ .

لم يكن « نزار » يتصور أنه « سيصبح هولنديا طائرا وأن غباره سيتناثر على كل القارات » !

●●●

كانت القاهرة اول بعثة دبلوماسية يبدأ بها رحلته مع السفر وكان للقاهرة عليه ـ كما يقول ـ فضل الربيع على الشجر . صقلت أحاسيسه ، وعينيه ، ولغته الشعرية ، . . وحررته من الغبار الصحراوى المتراكم فوق جلده .

وبعد القاهرة . . شرد « نزار » فى بلاد الله كلها .

ولأن السفر كان له تأثيره على « نزار » كشاعر . . فإننا نراه يقسم تطوره الشعرى الى مراحل ، لايخضعها إلى تطور فى « الموقف الفنى » كما يحدث عادة . وإنما يخضعها الى تقسيم جغرافى يرجع الى أسفاره ورحلاته .

● مرحلة النغم واللون . . وهى المرحلة الأولى حين لم يجد موهبته فى الرسم والموسيقى . . وامتدت لديه حتى سافر إلى القاهرة عام ١٩٤٥ ، وأقام فيها حتى عام ١٩٤٨ .

● المرحلة الرمادية . . وهى الفترة التى أمضاها فى لندن من عام ١٩٥٢ ، حتى عام ١٩٥٥ .

● المرحلة الصفراء . . وهى التى قضاها فى الصين من عام ١٩٥٨ الى عام ١٩٦٠ .

● المرحلة الوردية . . وهى التى أمضاها فى أسبانيا من عام ١٩٦٢ الى عام ١٩٦٦ ، تاريخ استقالته من السلك الدبلوماسى

والواقع أنه تقسيم لايفى بغرض التفسير العلمى لمراحل « تطوره » الشعرى . ولعل ذلك هو الذى جعل « نزار » يتحفظ كثيرا فى الصفحات الأولى من كتابه حين قال :

ـ « الشاعر يكتب . ولكنه أسوأ من يفسر كيمياء الكتابة . »

« يناير ١٩٧٥ »


نجيب محفوظ
زكى طليمات
يوسف وهبى
صلاح طاهر
أحمد رامى
أمينة السعيد
رتيبة الحفنى
نزار قبانى
صلاح ابو سيف
عبد الرحمن شكرى
فيروز
محمد عبد الحليم عبد الله
محمد لطيف
محمد على كلاى

فيروز

عندما أستمع إلى صوتها .. أتسلق معه جبلا شاهقا من الخضرة . أطير إلى مافوق السحب . ألمس القمر . أطل على سهل من النجوم الملونة . ويلوح لى من بعيد قريب ، ذلك المصلوب من روحه فى شجرة العصر : الإنسان !

قبل أن ألتقى بها .. تصورتها فى رداء فضفاض أبيض . أطول مما بين السماء والأرض . وجهها يملأ الفضاء . وعيناها المسافرتان إلى ماوراء المحدود ، شاخصتان بأحزان ذلك المصلوب من روحه فى شجرة العصر : الإنسان !!

●●●

فى الطريق إليها ، وحبات المطر تنقر زجاج السيارة كأنها ملايين المناقير الصغيرة الخضراء .. رأيتها من وراء العصافير قادمة من القمر . رداؤها الأبيض مرصع بحبات النجوم ، ومن حولها صوتها :

لأجلك يامدينة الصلاة .. أصلِّى .

كأن شفاه ملايين اللاجئين من ورائها تردد :

ياقدس يامدينة الصلاة !

●●●

ذبحة أسى كالسكين فى صدرى ، ينبثق منها وجه أم لاجئة ، تمطر أحزانها على أديم الأسفلت المغسول فى أمسيات شارع الحمراء .. طفلها يستوطن صدرها ، وعلى لسانها سؤال فى وجه العابرين المسرعين ، كالأمل المنطفىء .. لا يولد أبدا ..!

ويتعانق الوجهان فى رأسى . وجه الطفل اللاجىء .. ووجه فيروز وينهمر الحزن فى عينيها صوتا من أعماق الجرح :

لأجل من تشردوا ..

لأجل أطفال بلا منازل .

ويلله الصدى ملايين الأصداء :

البيت لنا ..

والقدس لنا ..

وبأيدينا سنعيد بناء القدس .
بأيدينا ..
للقدس سلام .

●●●

ويفعمنى الحزن الجماعى فى صوت فيروز ..

إنه نوع من الحزن يوحى بالرغبة فى الحلم .. وفى معانقة الوجود !

عندما تغنى للطبيعة .. يصبح الحزن فى صوتها هسيس الأوراق الخضراء فى حدائق الجبل .

وعندما تغنى للحب .. يحلم الحزن فى صوتها بالأفراح التى لم تتحقق بعد !

وعندما تغنى للعودة .. عودة اللاجئين الى أوطانهم .. يرتفع الحزن فى صوتها ابتهالا صوفيا من أجل أن يتحقق العدل فوق الأرض !

.. ومن الغريب أن « فيروز » دهشت كثيرا عندما سألتها :

● من أىّ نبع إنسانى ينساب هذا الحزن فى صوتك ؟

قالت بلهجتها اللبنانية التى لا تحضرنى الآن :

ـ وهل صوتى حزين فعلا ؟!!

●●●

كانت « فيروز » ترتدى بنطلونا من الصوف البنى . وبلوفر من « التريكو » البنى . وحول عنقها منديل بنى معقود من الأمام

هاهى ذى « فيروز » بسيطة .. واثقة .. مرحة . وعلى موعد مع طبيب الأسنان بعد ساعة .

● لاتكفى ساعة للحديث .

قالت وهى جالسة إلى مكتب زوجها الفنان عاصى رحبانى :

ـ غدا نكمل . ويكون لقاؤنا فى الجبل « حيث يقيم إخوان رحبانى » .

فى الغد .. منعتها آلام الأسنان من الحديث .

●●●

حدثتنى فيروز عن طفولتها .. قالت :

ـ بسيطة مثل كل الطفولات .. كان أبى يعمل رئيسا للعمال فى مطبعه . وكانت أسرتى مكونة من أبى وامى وشقيقتين وشقيق .. وكنت أنا الكبيرة .

●●●

أحست فيروز بإجهاشة الغناء فى صوتها وعمرها ١٢ عاما .

لم يكن فى بيتهم راديو .

كانت تفتح احدى نوافذ البيت ، فيصلها صوت راديو الجيران . ومنه حفظت أغنيات ليلى مراد ، وأسمهان وفريد الأطرش ، ومن قبلهم جميعا محمد عبد الوهاب .

فإذا أغلق الجيران الراديو .. إغتم مزاج فيروز الطفلة .. وانزوت فى غرفتها ، مرددة ما حفظته ـ خلسة ـ دون علم أفراد الأسرة !

وعندما اكتشف أبوها حلاوة صوتها ذات مرة .. طلب منها أن تردد الأغنية التى كانت تغنيها فى غرفتها منذ قليل .. فرفضت !

لم تكن فيروز الطفلة تغنى من أجل أن يسمعها أحد . وإنما لأن هاجساً غامضا بداخلها يدفعها إلى الغناء !

فمتى استجابت فيروز أول مرة الى الغناء فى حضرة الآخرين ؟

.. كانت فيروز طالبة بالمدرسة الابتدائية ، حين سمعها ـ مصادفة ـ واحد من الموسيقيين المشرفين على الموسيقى العسكرية فى الإذاعة اللبنانية ، فألحقها بمعهد الكونسرفتوار . وكان هذا الموسيقى نفسه ـ واسمه محمد فليفل ـ يقدم برنامجا غنائيا فى الإذاعة ...فقدمها فى أغنيتين . إحداهما لليلى مراد ، والأخرى لفريد الأطرش . ويومها إلتحقت بالاذاعة اللبنانية فى وظيفة « كورس ».وقفت فيروز لمدة عام وراء عدد من المطربين اللامعين ، أصبحوا الآن فى دائرة الظلال ، بينما يسقط الضوء طول الوقت على صوت فيروز .. فى كل المنطقة العربية ، وفى معظم بلدان العالم !

●●●

وهى تجتاز امتحان « الكورس » فى الإذاعة .. دخل عاصى رحبانى العازف بفرقة موسيقى الإذاعة اللبنانية فى تلك اللحظة-إستمع إلى صوتها بانبهار . وابتسم بداخله إحساس واثق غير عادى . وفى نهاية العام ، كان عاصى قد انتهى من تلحين الأغنية التى بدأت بها فيروز رحلة الشهرة . وبعدها بالفعل استقر إسم وصوت فيروز فى آذان المستمعين . وكانت أغنية « عتاب » الأغنية رقم واحد فى قائمة الأغنيات التى توالت بعد ذلك ، ووصلت حتى الآن ـ ونحن فى يناير عام ١٩٧١ ـ إلى ٥٠٠ أغنية كما قالت فيروز . هذا بخلاف الأغنيات التى غنتها فى ١٢ مسرحية .

●●●

وتتذكر فيروز أول مرة ، وقفت فيها لتغنى أمام الجمهور .

كان ذلك فى عام ١٩٥٧ ، وفى مهرجان كبير أقيم فى بعلبك ، يضم أساطين الغناء فى لبنان .

ليلتها .. اذهلها النجاح الذى حققته . لكنه فى نفس الوقت منحها الإحساس بمعنى أن يكون الإنسان قادرا على الغناء .. وأن يوصِّل غناءه إلى الآخرين .

ومن يومها ، وفيروز تستشعر الخوف الشديد قبل أن تغنى . ليس خوفا من الفشل . وإنما الخوف من ألّا تستطيع أن تجعل من الأغنية أجنحة يرفرف بها المستمع . وصفاء يطهر الإنسان من قلقه ، ويقيم بينه وبين الحياة جسراً من الحب .

هكذا تتصور فيروز الأغنية .

ولهذا تخاف كلما كانت على وشك الغناء !!

●●●

إن فيروز التى تصورتها فى رداء أبيض مرصع بالنجوم .. تذهب إلى اسواق بيروت .. تشترى بنفسها متطلبات البيت ، دون أن يتزاحم الناس حولها . لقد اعتادوا رؤيتها ، لأنها اعتادت أن تكون شخصية عادية تعيش وسط الآخرين ، حتى لايقوم بينها وبين الجمهور ذلك الحاجز الرخامى . فيخسر الفنان فرصة الرؤية المباشرة لواقع الناس والحياة اليومية .. ويفقد الصوت دفء الحياة .

●●●

تتعلق عينا فيروز بسقف الغرفة وهى تدندن :

ومشيت فى الشوارع ..

شوارع القدس العتيقة ..

قدام الدكاكين ..

قال عاصى مقاطعا :

ـ ماوقت الغناء يافيروز .. بتجاوبى على الأسئلة هلأ .

واسترسلت فيروز :

حين هوت مدينة القدس

تراجع الحب ..

وفى قلوب الدنيا ..

إستوطنت الحرب !

● هل تخافين الحرب ؟

ـ أخاف الصراصير ! .. كانت « فيروز » تقوم بدور « عطر الليل » فى مسرحية « أيام فخر الدين » . وفى أحد المشاهد كانت واقفة بمفردها فى مقدمة المسرح ، تنتظر دخول الأمير فخر الدين بعد قليل . وفجأة ظهر عن قرب منها

« صرصور » .. أخذ يقترب ويقترب ، وهى فى حالة من الفزع المكبوت . تحاول أن تتماسك حتى لا تخرج عن الدور . والصرصور فى رحلته المباغته ماض تجاهها . وفى اللحظة التى قررت فيها أن تفر هاربة من الصرصور الجسور .. دخل الأمير فخر الدين قبل موعده المقرر خطأ . وأمام دقات خطى « الأمير » تراجع الصرصور خارجا ، تاركا فيروز تلم شتات نفسها الهلعة ، لتغنى فى استقبال الأمير !!

●●●

تطلعت فيروز إلى الساعة فى معصمها . ثم اعتمدت ذقنها بذراعيها على ظهر المكتب :

ـ مابنلحق نحكى ، والحديث شجى كتير .. كتير .

قال عاصى وهو يتطلع الى ساعته هو الآخر :

ـ فيروز عمرها ما بتحكى ها الحكى .. موعد الطبيب قرب هلأ ..

قلت له :

● باعتبارك أول من قدم فيروز فى أولى أغنيات الرحلة الناجحة .. ماهو تفسيرك لها كمطربة ؟

قال :

ـ منذ أن غنت فيروز وهى تملك طابعا خاصا . جعلت الأغنية مركزة . وغنت مشاعر متعددة .. وألغت التكرار .

قلت لفيروز :

● هل تتابعين السياسة ؟

قالت :

ـ إننى أتابع الشعر .. السياسة ترهقنى .

● هل تعزفين على آلة موسيقية ؟

ـ أتعلم العزف على الجيتار .

بدا على فيروز أنها غير متلهفة على الذهاب إلى طبيب الأسنان .

قال عاصى بقلق :

ـ موعد الطبيب ح يضيع هلاً ..

قالت :

ـ نكمل الحديث غدا .. فى الجبل .

.. وفى الغد ، إعتذرت أنا عن موعد الغداء فى الجبل ، وفى الرابعة عصرا ، إعتذرت نهائيا عن موعد الجبل ، إذ وجدتنى مضطراً للعودة إلى القاهرة فى نفس الموعد !

●●●

قال عاصى رحبانى ، بعد أن خرجت فيروز إلى موعد الطبيب :

ـ هايدى صحافة ، والاَّ علم نفس ؟ !

قلت : إننى فعلاً أحوم حول منابع الحزن فى صوت فيروز . هل هو حزن واع .. أم هو حزن تلقائى ؟

قال : شوبدَّك تعرف .. بتسألها بكير « أى باكر »

.. فى هذه اللحظة .. دخل منصور رحبانى بيده « دوسيه » بداخله مجموعة من شعره . قرأ علينا جزءاً من قصيدة لم تتم ، وقصيدتين أخريين كاملتين ، يغلب عليهما إيقاع الفكرة ، أكثر من الإيقاع الموسيقى ، لكن سلامة التنقل داخل القصيدتين يعطى اكتفاءً بالإيقاع المطلوب .

قلت لعاصى ومنصور رحبانى :

● من أين تنطلق أعمالكما الموسيقية ؟

قالا فى صوت واحد كأنهما كورس :

ـ من فكرة الفن نفسه . الفن فى خدمة إنسانية الإنسان .

●●●

الليل أوغل ..

ومنصور رحبانى يتسلل بقصيدته التى لم تتم .. لتتم .

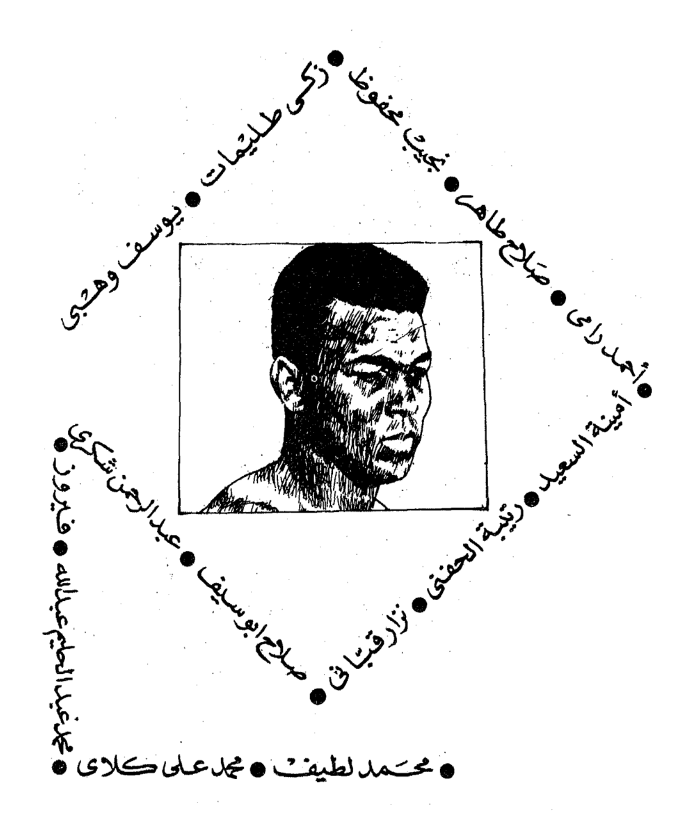
وعاصى رحبانى يشعل سيجارته التاسعة ..

وأنا أستأذن فى الانصراف ، على موعد فى الغد .

وفى الخارج .. وحبات المطر تنقر زجاج السيارة .. كانت فيروز بردائها الأبيض .. من وراء الغيوم ، تملأ سماء بيروت .. هابطة ـ فى رأسى ـ من القمر .. وعلى شفتيها :

لأجلك يا مدينة الصلاة
أصلىِّ ..
لأجل من تشردوا ..
لأجل أطفال بلا منازل !

« فبراير ١٩٧١ »


زكى طليمات
نجيب محفوظ
يوسف وهبى
صلاح طاهر
أحمد رامى
أمينة السعيد
رتيبة الحفنى
نزار قبانى
صلاح ابو سيف
عبد الرحمن شكرى
فيروز
محمد عبد الحليم عبد الله
محمد لطيف
محمد على كلاى

وهو فى طفولته . . كانت أمه تقول عنه : إنه أقوى من طفولته !

وعندما بدأ لعبة الملاكمة فى عام ١٩٦٠ ـ وكان عمره دون العشرين بقليل ـ بدأ اللعبة كأقوى من كل اللاعبين الذين سبقوه ، والذين صرعهم جميعا فوق الحلبة !!

ودائما يحرص « كلاى » على أن يكون الأقوى ، فيما يوجه من ضربات سريعة . . وهادفة . . ومصيبة ، وفيما يأخذ من مواقف الدفاع عن السود . . والأطفال . . والفقراء . . وشعوب الدول النامية . وفى كل ما يصدر عنه من مقولات . . وأفكار . . وآراء .

. . وفى عام ١٩٦٧ ، لم يتردد « كلاى » فى أن يكون « **أقوى** » من كل قوانين وزارة الدفاع الأمريكية ، حين رفض أن يؤدى الخدمة العسكرية فى صفوف الجيش الأمريكى ، خلال الحرب غير العادلة بين أمريكا وڤيتنام ، وفى أن يكون « أقوى » من كل أعدائه البيض الذين جردوه من لقبه ، ومن حقوقه الدستورية ، ثم حكموا عليه بالسجن خمس سنوات ، وغرامة مالية قدرها عشرة آلاف دولار !!

لقد تحمل « كلاى » ـ وبقوة ـ مسئولية الموقف الذى اتخذه بالرفض . وبقوة أقوى . . اجتاز سنوات الامتحان الصعب ، طوال ثلاث سنوات أمضاها شبه عاطل عن العمل ، منزويا فى عتمة الظل الشديد ، حتى كاد العالم أن ينساه !!

كان « كلاى » أقوى فى تحمل المسئولية . مثلما كان « الأقوى » فى كل من عارضوا الحرب غير العادلة فى ڤيتنام .

ولأن الحب « أقوى » من الكراهية . فإن كلاى لا يكره أحدا فى هذا الوجود . لكنه يرفض ـ بقوة ـ أولئك الذين يضطهدونه ، ويضطهدون الآخرين !

ولأن « التواضع » أقوى من الاستعلاء . . فإن « كلاى » إنسان بسيط إلى أبعد حدود البساطة . وهذا سر آخر من أسرار شعبيته لدى قلوب الجماهير فى العالم . لكنه أقوى ما يكون اعتداداً بنفسه ـ إلى حد يشبه الغرور ـ أمام خصمه ، إن هذا الاعتداد « المكثف » ليس إلا نوعا من « الحضور » الطاغى ، يستمد به المزيد من قوته وفاعليته . وكذلك يخطف به انتباه الجماهير وتعاطفهم . ثم هو بعد ذلك موجه إلى خصمه ، محدثا بداخله نوعا من الإرباك ، والتوتر ، والقلق !!

ولعل أقوى ما فى « كلاى » هو إيمانه المطلق ـ قبل كل مباراة ـ بأنه لابد منتصر . وبأن الهزيمة لابد أن تكون من نصيب الخصم !

إن هذا الإيمان المسبق . . يفرغ طاقته من أدق ذرات الشك والتردد . ويحشد قواه فى كل ثانية من ثوانى المباراة بالثقة الواثقة ، من أن الانتصار كامن فى قبضته !

إنه يعتبر نفسه « ملكية » لكل الناس .

ومن هذا الإحساس العميق لديه بنفسه ، وبالله ، وبالقضايا العادلة التى يخوض من أجلها ـ بلعبته المفضلة ـ حربا لا هوادة فيها . . تتفجر بداخله روح تهزأ من كل النوايا المضمرة له بالشرور . . وتخضر قواه أكثر !

●●●

فى كتابها ، بعنوان « السود فى أمريكا » تقول الكاتبة الأمريكية مرجريت بوتشر :

ـ « من بين المواهب الفنية الممتازة فى الزنجى . . هذه السهولة العجيبة فى البيان القائم على نوع التورية البلاغية ، والقدرة على التصوير » .

. . واذا كانت هذه الملاحظة نفسها ، هى التى خرجت بها من قراءاتى لعدد من الروائيين والشعراء الزنوج ، مثل : جيمس ويلدون جونسون ، وبول لورانس دنبار ، وكلود ماكاى ، وجين تومز ، ولانجستون هيوز ، وآرنا بونتمبس ، وكاونتى كولين ، وريتشارد رايت ، وجيمس بولدوين ، وغيرهم آخرين . . فإن نفس هذه الملاحظة تنطبق على « محمد على كلاى » فيما يصدر عنه من الآراء والتعليقات ، والتصريحات .

فى أغسطس من عام ١٩٧٥ ، وقبيل مباراته الشهيرة مع البطل الإنجليزى « جو بوجنر » فى كوالا لامبور ـ سأله أحد الصحفيين الإنجليز عما إذا كانت لديه رسالة يجب أن يوجهها إلى الملكة « إليزابيث » فى هذه المناسبة . ولأن « كلاى » كان يعرف أن خصمه فى هذه المباراة « جو بوجنر » قد وعد ملكة بلاده بأنه سوف يعود من « كوالا لامبور » وقد جلب إلى لندن التاج العالمى . . فإن إجابة « كلاى » جاءت هكذا :

ـ « قل لصاحبة الجلالة إن « بوجنر » يرغب كثيرا فى أن يعود إلى انجلترا من هذه المباراة كـ « ملك » ولكنى أعتقد أنه بوجود الملكة « إليزابيث » فإن انجلترا ليست فى حاجة إلى ملك مثل « بوجنر » !

. . وهكذا ، استطاع « كلاى » بتلك السهولة العجيبة فى البيان والتورية البلاغية ، وقدرته على التصوير . . ليس فقط فى أن يشكك ملكة انجلترا فيما وعد به مواطنها « بوجنر » . . وإنما هيأ « بوجنر » نفسيا ـ كذلك ـ إلى أن يتحلل من هذا الوعد !!

فلما سأله الصحفيون ـ قبيل بداية المباراة ـ عن رأيه فى « بوجنر » قال على الفور :

ـ « إنه بطل كبير . وربما حمل تاج البطولة العالمية يوماً . . لكن ليس بالطبع فى الوقت الذى أتربع فيه على ذلك العرش .

ثم أردف :

ـ الأمريكيون السود ، هم أفضل الملاكمين فى العالم . ولقد هزمتهم جميعا . وإذن فمن الصعب على أوروبى أن يهزمنى !

من هو « بوجنر » هذا الذى يواجهه « كلاى » بكل هذه الثقة ؟

إن « بوجنر » يحتل المرتبة الرابعة فى قائمة أحسن الملاكمين العالميين المرشحين للمراهنة على بطولة العالم وراء « فورمان » و« فرايزر » و« نورتون » .

إنه ملاكم له وزنه . فهو قوى بدنيا . وموهوب من الناحية الفنية ، ويمتاز بذكاء نادر فى التنقل فوق المربع ، ومباغتة الخصم . يضاف إلى ذلك أنه فى الخامسة والعشرين . . سن الفتوة . . بينما « كلاى » فى الثالثة والثلاثين !

لم يكن « كلاى » يجهل أيضا أن خصمه ـ بالرغم من كونه مجرىّ الأصل ـ إلا أنه محط أنظار البريطانيين ، خاصة بعد أن حرمهم من أعظم ملاكميهم « هنرى كوبر » الذى ظل مسيطرا على الملاكمة البريطانية طوال ثلاثة عشر عاما . إذ استطاع « بوجنر » فى عام ١٩٧١ أن يجرده من ثلاثة ألقاب : بطولة أوروبا ، وبطولة الكومنولث ، وبطولة بريطانيا .

كل هذا يعرفه « كلاى » عن خصمه . ويعرف كذلك انتصاراته الباهرة أمام كل من الملاكم الإيطالى « بيبى روس » والملاكمين الأمريكيين « ماك فوستر » و« جيمس إيليس » .

لكن من طبيعة هذه « المعرفة » أن توقظ فى « كلاى » روح التحدى فضلا عن « دراسة » الخصم !

وفى تلك المباراة ، أدركت ملكة انجلترا أن « كلاى » كان يعنى ما يقول . وأنه كان واثقا من قبضته أكثر من ثقتها فى وعد « بوجنر » ، لأن « بوجنر » خسر المباراة ، وفاز بها « كلاى » كما أراد !

وعندما علقت وكالات الأنباء على فوز « كلاى » بقولها :

– إن شباب « بوجنر » وقوته ، لم يستطيعا أن يغلبا خبرة « محمد على كلاى » وصفاته الرياضية . فقد أثبت « كلاى » – إبن الثالثة والثلاثين – أن فى استطاعته أن ينازل أى منافس ، بل ويقدم الدليل على أنه أفضل ملاكم للوزن الثقيل فى الوقت الحاضر !

عندما قالت وكالات الأنباء هذا الكلام . . كان « كلاى » يقول :
– لاتنسوا أننى مسيطر على « بوجنر » . . فهو يعتبرنى مثالا له . وقد أتانى ذات مرة يرجونى كى أوقع له على « الأوتوجراف » فتصوروا أنه يأتينى الآن ليأخذ منى اللقب !!

●●●

كان « كلاى » – قبل أن يتجه إلى كوالا لامبور – قد صرح بأنه سوف يعتزل ، بعد أن « يضرب » بوجنر فلما هزم بوجنر بالفعل ، سأله مواطن ماليزى :

– هل مازلت مصرا على موعد التقاعد ؟

لكن « كلاى » كان قد نسى تصريحه ذلك . . فقد أجاب على سؤال المواطن الماليزى بقوله :

– « ليس قبل أن آخذ فى طريقى « فريزر » ، و« فورمان » و« نورتون » واحدا بعد الآخر. وعندما أهزمهم كلهم ، سأنسحب من الحلبة ، لأتفرغ لزوجتى وأولادى .

●●●

– « إننى أكسب عيشى بصعوبة وبخطورة ! إن أمريكا تدفع من أجل أن تحطم وجهى . وهذا هو الشىء الوحيد الذى علمتنى إياه !

. . هذه العبارة ، إعتاد « كلاى » أن يقولها فى كل مناسبة ،وهى نفس العبارة التى تدور حولها أحداث أفلام المخرج الأمريكى « وليام كلاين » المسمى « محمد على الأعظم »

فى هذا الفيلم يتجسد الكثير من الحقائق والأفكار التى استقرت فى « عقل » محمد على كلاى ، من واقع معاناته داخل المجتمع الأمريكى ، ومن خلال المواقف التى يتخذها « كلاى » كقيم ومبادىء لايحيد عنها .

ولأن « كلاى » هو موضوع الفيلم . . وهو البطل وهو المفتاح الذى يفتح به المخرج دهاليز المجتمع الأمريكى . . فإن الكلمات التى ينطق بها « كلاى » فى الفيلم – وهى نصوص مما يرددها فى الواقع – تكشف عن ثراء هذه الشخصية « الأسطورة » إنسانا ومناضلا من طراز معين :

● « البيض يعتقدون أنهم هم الأعظم وكذلك الصينيون . لكن الزنوج هم الأعظم . فهم أعظم الرياضيين وهم أعظم من لعب كرة القدم . إنهم يعطون أفضل مما يعطى الآخرون فلماذا لايقال ذلك ؟ »

● « إن العمل الجيد ينسب دائما إلى البيض مثل بابا نويل ، وطرزان ، وملكة جمال العالم . صور الملائكة ترسم باللون الأبيض . بينما صورة الشيطان ترسم باللون الأسود !! »

● إننى لست عنصريا . إنما أؤيد السود فى مواجهة اضطهاد العنصريين لهم .

ولا يستبطن الفيلم - فقط - نوع الفكر الذى يحمله بداخله محمد على كلاى ، خارج الحلبة وداخلها.إنما يعكس - كذلك - ما يواجهه « كلاى » من مافيا الملاكمة فى أمريكا .

وبالصوره السافرة يكشف الفيلم عن عالم الملاكمة « الردىء » فى الولايات المتحدة الأمريكية : كيف يتم الاستقطاب حول مباراة كبرى ؟ والطريقة التى ينظر بها الى كل ملاكم وفق أهوائه السياسية ، أو العنصرية ، أو الجنسية .

وبينما يعكس الفيلم صورة ناطقة لمأساة الحياة الأمريكية - تلك المأساة التى يتحدى كلاى قوانينها غير العادلة بقبضته وإيمانه بالقضايا التى يلعب من أجلها - يكشف الفيلم فى نفس الوقت عن « كلاى » البطل الذى لايماثله غيره من الأبطال .

- إن كلاى هو أعظم رجل فى تاريخ الزنوج المعاصر .

●●●

المال . . ليس هو الغاية التى تتوسل إليها قبضة « كلاى »

لكنها وجوه الإنفاق التى تستحوذ على أمواله الطائلة التى تدرها عليه « قبضة » يده !

فهو فى ربيع هذا العام ١٩٧٥ ، طار إلى أورلاندو فى فيلادلفيا ليلعب مباراة لصالح مدرسة للأطفال السود معرضة للانهيار .

وهو يقصد « ميامى » ليس للتدريب فقط . . وإنما لأن لديه هناك ثلاثمائة ألف دولار ، لابد أن ينفقها على المحتاجين .

وهو لديه عدة عقود بعدة ملايين من الدولارات . . و . . .

- « عقودى من هذه المباريات أخصصها لشراء أتوبيسات لمدارس الأطفال وماكينات خياطة لمشاغل الفتيات السود . . وأجهزة تدفئة للمساجد . »

. . إن « كلاى » يشغله التفكير فى الآخرين . . عن ذاته !

إنه يتناول وجبة واحدة فى اليوم !

وأما الملابس . . فهى لا تعنيه !

عندما زار « ميامى » لأول مرة . . شاهد مليونيرا يرتدى ملابس رخيصة ، ويقود سيارة شيفروليه قديمة ! :

- « الآن فهمت . لقد وصل . فماذا يعنيه ؟ وكذلك أنا . هذا الحذاء . . إنه الوحيد الذى أملكه . وهو فى حاجة إلى ورنيش وكذلك بنطلونى الواسع هذا . أما الجاكيت الذى أرتديه ، فقد أخذته من زميلى « هاوازدكوسول » . لقد وصلت . والمظاهر لم تعد تعنينى » .

●●●

صفات أخرى جميلة ، يتسم بها « كلاى » ، وكأنما يضرب المثل على تميزه الفريد ، وسط كل اللاعبين والنجوم.بل إن هذه الصفات ، هى سر من أسرار نضارته العقلية والروحية والجسدية معاً : تلك هى اعتماده على نفسه . . وعصاميته .

فهو الذى يتولى تصريف شئونه الخاصة والفنية بنفسه . وهو لايذوق الخمر . ولايغشى علب الليل . ولاينفق وقته فى السهر . وهو متدين ورب أسرة يعشق بيته وزوجته وأولاده وصفوة أصدقائه .

●●●

ها هو ذا « محمد على كلاى » يصرح مؤخرا برغبته فى أن يتقاعد من الآن !

والحقيقة أننى أكتب هذه السطور - وهى أقل بكثير مما يمكن أن يغطى جوانب هذه الشخصية الفريدة - وكأن « كلاى » على وشك أن يعتزل فعلا . لكن الأمل يبقى قويا ، فى أن يظل « كلاى » بحضوره الأخاذ ، وجها عابرا قارات العالم عبر شاشات التليفزيون ، والسينما ، والصحف العالمية . وجها محبوبا يراود عشاق قبضته وشخصيته من جديد .

- « إننى أتسلم آلاف البرقيات ، وكلها تطالبنى بعدم ترك الملاكمة وقد رجانى البعض بعدم ترك الحلبة ، قبل أن أضرب« فرايزر ».وأنا أقول إنه ليس من المعقول أن أضرب « فرايزر » ، وأترك « فورمان » .

. . ثم يقوى هذا الأمل أكثر . . حين يرفض المعلقون الرياضيون أن يسلموا بتصريحات « كلاى » الأخيرة حول رغبته فى الاعتزال ، مؤكدين أنه لن يعتزل للسبب التالى . . وهو سبب نفسى بحت :

- إن كلاى من النوع الذى يحب الجمهور . والجمهور فى حاجة إلى المسرح . وأفضل مسرح لمحمد على كلاى هو الحلبة !!

« أكتوبر ١٩٧٥ »

رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٦٦٤ / ٢٠٠١

I.S.B.N 977 - 01 - 7443 - 2

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب





بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل دول العالم النامي وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى دول أخرى. كما أسعدنى كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هى الإبن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن علي التوالى، تضيف دائمًا من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك



١٥٠
قرش
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب